الباب الثالث

عالم المدينة

الباب الثالث

عالم المدينة

"يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة"

(حديث شريف)

حمل مالك وصف "عالم المدينة" عن جدارة، بحلقته وطريقته، واتساع مدى عمره، وأثره، وبمنهاجه الذي تبلورت فيه طرائق سابقيه، ووقوفه كالجبل العالي الذي يزحم الأفق في وجه المشككين أو المتشككين، مدافعا عن تراثها الفكري من اليسر والسماحة والاقتدار على التقدم الحضاري، مع الحرص على السنن، وبالاجتهاد، مع الابتعاد عن الأغاليط والمستحدثات الخطرة، وبانتقال فكره على أيدي تلاميذه إلى القارات الثلاث المعروفة في عصره.

وفي الفصلين التاليين محاولة لتصوير حلقة مالك، بألوان مركزة وإشارات مختصرة من تراث المدينة.

الفصل الأول

الأستاذ

"يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة"

(حديث شريف)

كان مالك بن أنس طويلا جسيما، عظيم الهامة، جيد البدن، وعندما يصير أبيض الرأس، واللحية، سيكون أصلع عظيم اللحية وتكون ذات سعة وطول، أبيض شديد البياض إلى الشقرة، وصفة أبو حنيفة بأنه أشقر أزرق، وكان أعين حسن الصورة، يأخذ أطراف شاربه ولا يحلقه ولا يحفيه بل يرى حلقه من المثلة. ويترك له سبلتين طويلتين ويحتج بفتل عمر شاربه إذا أهمه أمر. حتى شاربه يتمثل فيه بعمر. دخل عليه رجل حلق رأسه وشاربه فقال له: يا هذا؟ لو أخذك الشيطان ونكل بك ما بلغ في عقوبتك أكثر مما فعلت بنفسك! ورآه يحيى بن سعيد القطان إذ وفد عليه من العراق سنة ١٤٤، أسود الرأس واللحية، وهو في الخمسين، وكان في بعض عهده يفرق شعر رأسه، ولما شاب ولم يستعمل الخضاب، بعث إليه بعض أمراء المدينة يقول: لم لا تصبغ يا أبا عبد الله، فكبت الأمير بقوله لرسوله: قل لصاحبك: ما بقى عليك من العدل إلا أن أصبغ؟ ويحتج في ذلك بعلي.

وكان مالك يكره الاكتحال إلا لعلة، ويتطيب بطيب جيد.

ويلبس قميصا عدنيا رقيقا – وثيابا مدنية جيادا أو خرسانية أو مصرية مترفعة بيضاء، وكان نقي الثوب لم ير في ثوبه حبر قط. يقول: أحب للقارئ أن يكون أبيض الثياب، ويكره اختلاف اللبوس، وأحيانا يلبس قلنسوة متركة وطيلسانا وثيابا مروية جيادا. والثياب من آسيا وأفريقية. دخل عليه الراوي فقال: رأيت عليه طيلسانا يساوي خمسمائة... أشبه بالملوك. وفي البيت وسائد أصحابه عليها قعود،قيل له: أشئ أحدثته أم وجدت الناس عليه؟ قال: "رأيت الناس عليه". وذلك من أثر النعمة والرغبة في راحة جلاسه، يستوي فيها أضيافه وتلامذته.

يقول: "ما أحد أنعم الله عليه إلا أحب أن يرى أثر نعمته عليه وخصوصا أهل العلم. ينبغي لهم أن يظهروا مروءاتهم في ثيابهم إجلالا للعلم" ويقول: "التواضع في التقى لا في اللباس. إنا كنا نتواضع في التقى والدين لا في اللباس".

أما خاتمة فمن فضة – مات وهو في يده، فصه حجر أسود، نقشه سطران: "حسبي الله ونعم الوكيل" بكتابة جميلة، يحبسه في يساره، فإذا توضأ حوله إلى يمينه. وإذا سئل عن اختياره لهذا النقش قال سمعت رسول الله يقول: "حسبي الله ونعم الوكيل".

ولم يكن يملك دارا، فكان يسكن بكراء دارا كتب على بابها (ما شاء الله) قال تعالى: (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله). والجنة هي الدار.

وسكن دار عبد الله بن مسعود ﷺ سادس ستة أسلموا. وواحدا ممن ينتهي إليه علم الصحابة.

كان لا يضحك، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وهو مع ذلك من أحسن الناس خلقا مع أهله. ففي ذلك – كما قال – مرضاة لربك، ومثراة في مالك، ومنسأة في أجلك. وقال: وقد بلغني ذلك عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ.

وكان يقول: "إذا لم يكن للإنسان في نفسه خير لم يكن للناس فيه خير".

ولا يرى أحد الشيخ في مباذله. فإذا أصبح لبس ثيابه وتعتمم – فلا يراه أحد من أهله ولا أصدقائه إلا كذلك. وما أكل ولا شرب حيث يراه الناس. ولا يشتري بنفسه حوائجه من السوق بل يوصي العالم بقوله "ينبغي للعالم ألا يتولى شراء حوائجه من السوق بنفسه وإن كان يقع عليه في ذلك نقص في ماله فإن العامة لا يعرفون قدره" ويضيف إلى ما مضى من خلائق السادة: أن رفع الصوت ليس محمدة وبخاصة عندما يذكر حديث النبي فهو كهيئة رفع الصوت فوق صوت النبي. والله سبحانه يقول: (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي).

وكان ضيق الأمر في بداية العمر حتى باع سقف داره ليتعلم – ولما صلح حاله بعض الصلاح صار له في اليوم درهمان من اللحم. لو لم يجد ثمنهما باع من متاعه ليشتريهما. ثم جعل الله له بعد العسر يسرا فأمسى يأمر خبازه (سلمة) أن يعمل له ف يكل يوم جمعة طعاما كثيرا له ولعياله. يبر تلاميذه ويبر نفسه. شرابه في الصيف السكر وفي الشتاء العسل، ويؤثر الموز لأنه فاكهة دائمة كفاكهة الجنة.

* * *

وجلس يوم أذن له الشيوخ بالجلوس، فليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس – كما يؤثر قوله – حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل وأهل الجهة من المسجد. فإذا رأوه أهلا لذلك جلس. قال: "ما جلست حتى شهد لي سبعون شيخا من أهل العلم أني موضع لذلك".

سأل رجل مالكا في مسألة فبادره عبد الرحمن بن القاسم فأفتاه. وابن القاسم يجئ في المقام الثاني من تلامذة مالك، حيث المقام الأول للشافعي وحده – فأقبل مالك عليه كالمغضب وقال: جسرت على أن تفتي يا أبا عبد الرحمن!!! وكررها وقال: ما أفتيت حتى سألت هل أنا للفتوى موضع قيل له من سألت؟ قال: الزهري وربيعة.

وكان يقول إن كثرة الكلام لا توجد إلا في النساء والضعفاء ويقول: كثرة الكلام تمج العالم وتنقصه وتذله.. ويقول: من علم أن قوله من عمله قل كلامه.

وإذا كان مجلس الفقيه قد لا يسلم من أن يعتوره سفيه – بنبوة فاذة أو كلمة شاذة فقد سلم مجلس مالك. قال ما جالست سفيها قط، وقيل له يوما من حدثك بهذا؟ قال إنا لم نجالس السفهاء.

وعلى هذا الأساس يقول: لا ينبغي أن تتكلم بشئ تستحي منه، ولا تمش في حاجة تستحي منها. ولقد سمعت ربيعة يقول: سأل رجل أبا بكر الصديق أن يمشي في حاجة فلما سار قال للصديق: خذ بنا في غير هذه الطريق، فإن على طريقنا مجلس قوم أستحي منهم، فقال أبو بكر: تصحبني في أمر وتستحي منه! لا مشيت معك أبدا.

ومالك من أكثر الناس إنصافا يقول عن الإنصاف: "لم أجد في الناس أقل منه فأردت المداومة عليه".

ولما سئل النبي عليه السلام أي المسلمين خير قال: "من سلم الناس من يده ولسانه".

ومالك يقول: "ينبغي للمرء ألا يتكلم إلا فيما أحاط به خبرا". ويقول: "لا يصلح أمر الرجل حتى يترك ما لا يعنيه ويشتغل بما يعنيه فإذا كان كذلك أوشك أن يفتح الله تعالى قلبه له". وهو من أشد الناس مداراة للناس يعمل بقوله عليه السلام: "رأس العقل بعد الإيمان مداراة الناس" وقوله: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه".

وسنرى مع الزمن، أن ما تجمع للشيخ من كمال خلقي، زادته السنون ثباتا وتدريس السنة سموا،وأمسى طبيعة عنده، وغدت ذاته وصفاته موضوعا يدرسه الطلاب بالمدينة، فيقم التلميذ عاما – بعد الفراغ من دراسة سنن الرسول – ليدرس سجايا أستاذه.

أما رزق مالك فسيجري يسيرا من مرابحة الأربعمائة دينار وهدايا الأصدقاء، كمثل أن يجيئه من الليث بن سعد مائة دينار في العام.

وتبارى الناس في مرضاته، تمنى يوما كساء قرمزيا فجئ في الغداة بسبعة أرسلت إليه! وكتب إلى الليث يطلب عصفرا يصبغ به ثيابه فجاءه ما صبغ به ثيابه وثياب صبيانه، وصبيان جيرانه، وباع الفضل بألف دينار، وترك له ابن القاسم صرة مائة مثقال فوزعها على الناس، وجاءته هدية من خيل خراسان فأهداها إلى تلميذه محمد بن إدريس الشافعي.

وفي خواتيم الحياة أقبلت جوائزه الخلفاء آلافا من الدنانير.

* * *

ويقصد مالك راجلا إلى المسجد فهو لا يركب ويقول: إني لأستحي من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة.

فإذا سئل في الطريق عن الفقه قال: للفقه كرامة تمنع الجواب. مشى معه عبد الرحمن بن مهدي يوما إلى "العقيق" فسأله عن حديث فنهره وقال: كنت في عيني أجل من أن تسأل عن حديث رسول الله ونحن نمشي.

فإذا جلس بالمسجد، جلس بين القبر والمنبر في الروضة الشريفة. قال عليه السلام: "ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة".

كانت مساحة المسجد عندما أنشأه الرسول مربعة الشكل يحيط بها جدران من الآجر والحجر، وعلى جزء منها سقف من جريد النخيل، تغطيه طبقة من الطين ويستند إلى عدد من جذوع النخيل، فزاد فيه عمر بن الخطاب، وجدده عثمان بن عفان. وكما يقول البلاذري: ثم لم يحدث فيه شئ إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أبيه. فكتب إلى عمر بن عبد العزيز وهو عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه. وبعث إليه بمال وفسيفساء رخام وثمانين صانعا من أهل الشام ومصر فبناه وزاد فيه، وصار مثالا يحتذى في مساجد الإسلام.

هنالك يجلس الشيخ وكأن التاريخ رجع القهقري قرنا وبعض قرن ليسبق الزمان كله – فهذا هو المكان الذي كان يوضع فيه فراش الرسول إذا اعتكف... وهو مجلس عمر بن الخطاب – مجلسا كله وقار وحلم وهيبة. ليس فيه لغط ولا مراء ولا رفع صوت. والتلاميذ حافون به، سكرت أبصارهم، يسأله السائل فيجيبه فلا يقول أحدج من أين رأيت هذا. فهي حقيقة علمية ما دام نطق بها مالك. ولقد كان من زينة الدنيا أن يقول الرجل: حدثنا مالك. كما يقول بشر الحافي الذي لم ينشغل بالدنيا.

ولقد يأبى مالك الجواب فلا يراجعه أحد – هيبة له، والسائلون نواكس الأذقان.

وكان الغرباء يسألونه عن الحديث والحديثين فيجيبهم الفئة بعد الفئة، وربما أذن بعضهم فقرأ عليه، وكان لا يوسع لأحد في حلقته ولا يرفعه، يدعه يجلس حيث ينتهي به المجلس.

فإذا كان المجلس بداره، فربما خرجت الجارية تقول للناس: يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم. وإن قالوا: الحديث، دخل مغتسله فاغتسل وتطيب وسرح لحيته ولبس ثيابا جددا وتعمم ووضع على رأسه لباس رأس طويلا، وصلى ركعتين، ثم خرج إليهم وعليه الخشوع، وتلقى له المنصة ويشيع في أجواء المجلس طيب عرف العود، فلا يزال يتبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله تعظيما لحديثه ﷺ، والتلاميذ سكوت. لا يكلم هذا هذا – ولا يلتفت ذا إلى ذا، والطلاب بالباب يقتتلون من الزحام ومعن بن عيسى جالس على العتبة، لا ينطق مالك بشئ إلا كتبه.

وهو يضع الكلمة الصالحة موضع الدواء وبمقداره، كثير الصمت قليل الكلام يقول: من أكثر الكلام ومراجعة الناس ذهب بهاؤه، وهي سنة أبي بكر، إذ يقول لقائده: إذا وعظتهم فأوجز.

ويقول: إن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا، والنبي عليه السلام كلامه فصل – لا نذر ولا هذر.. أثنى رجل على آخر ومالك ساكت، فقيل له لماذا لا تتكلم؟ قال: متعت بك كان يقال: نعم الرجل فلان لولا أنه يتكلم كلام سنة في يوم.

وهو كالسلطان له آذن، وله حجاب سود، يقيمون من يأمر بإقامتهم والتلاميذ يضاغط بعضهم بعضا على الباب فينادي مناديه ليدخل أهل الحجاز فما يدخل إلا هم، ثم ينادي في أهل الشام ثم في أهل العراق، فإذا فرغ من يحضر أذن للعاملة فانقصفوا عليه.

وهو إذ يجلس للحديث لا يحدث الواقفين: سأله قاض وهو واقف عن حديث فأمر به فحبس. قيل له إنه قاض.قال: القاضي أحق من أدب، وسأله هشام بن القاري وهو واقف، فأمر به فضرب عشرين سوطا، ثم أشفق عليه فحدثه عشرين حديثا. قال هشام: وددت لو زادني سياطا ويزيدني حديثا.. وصارت طريقة الشيخ نظاما للرواد يلتزمون فيؤثرون الشكل الذي يريده على الموضوع الذي يريدونه. أتاه أبو حازم وهو يحدث فجاوزه قائلا إني لم أجد مجلسا أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله وأنا قائم..

* * *

وليس من مصلحة التلاميذ كثرة القراءة في المجلس الواحد، ولذلك يقرأ لهم كاتبه "حبيب" كل عشية من ورقتين إلى ورقتين ونصف لا تبلغ ثلاثا، وليس من منهج الأستاذ كثرة الجدل في المجلس، وإنما يخبر بالسنة لتقبل منه دون جدل قيل له: الرجل عالم بالسنة أيجادل عنها؟ قال لا. ولكن ليخبر بالسنة فإن قبلت منه وإلا سكت.

وليس من المنهج كثرة المسائل، ولما سئل مالك عن حديث قيل وقال وكثرة السؤال قال: أما كثرة السؤال فلا أدر أهو ما أنتم فيه مما أنهاكم عنه من كثرة المسائل، فقد كره رسول الله ﷺ المسائل وقال تعالى: (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)، فلا أدري أهو هذا أم السؤال في الاستعطاء.

قال أنس: "نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شئ. فكان يعجبنا أن يجئ الرجل من أهل البادية. العاقل. فيسأله ونحن نسمع".

يقول أسد بن الفرات وقد قدم على مالك من بعيد: وكان ابن القاسم وغيره من أصحابه يجعلونني أسأله عن المسألة فلو أجاب يقولون: قل له فلو كان كذا فأقول له. فضاق علي يوما فقال لي: هذه سلسلة بنت سليسلة إن أردت هذا فعليك بالعراق. ولقد يقول له حسبك يا مغربي،

في حين يرضى مالكا يسر يحيى بن يحيى وتأتي الكلام له. قال قائل في الحلقة إن فيلا يمشي في الخارج فتعالوا ننظره فانفض التلاميذ إلا يحيى فسأله مالك. لم لم تخرج لتنظر الفيل وهو ليس في بلادك؟ قال لم أرحل لأبصر الفيل وإنما رحلت لمشاهدتك وأتعلم من علمك وهديك؟ فأعجبه ذلك.

وإنما كره الشيخ طريقة العراقيين لإيغالهم في المسائل وكثرة تفريعهم في الرأي. ولربما كانت المغالاة في الفروض مغالاة في الخيال، أو في الخبال، فيلقاها مالك بالأدب الذي يليق بأهل السنة.

سأل عراقي مالكا عن رجل وطئ دجاجة، فخرجت منها بيضة، فأفقست البيضة عنده عن فرخ، أيأكله؟

فقال مالك: سل عما يكون ودع ما لا يكون.

وسأله آخر عن أغاليط كهذه فلم يجبه. قال: لم لا تجيب يا أبا عبد الله؟ قال: لو كنت تسأل عما ينفع أجبتك.

ومن قبل ذلك ناقش ربيعة أستاذ مالك سعيد بن المسيب أستاذ المدينة محتجا بالقياس فقال له: أعراقي أنت؟ وسألت عائشة امرأة عن قضاء الحائض الصوم دون الصلاة فقال لها "أحرورية أنت"؟ نسبة إلى حروراء بالعراق، حيث تجمع الخوارج.

وإذا لم يكن يجيب إلا فيما ينفع فهو لا يجيب إلا من ينتفع. وإذا تحداه السائل فالويل له، سأل سائل فلم يجبه. فسأل سؤالا آخر فلم يجبه. فتساءل ولم؟ فأمر مالك به إلى السجن. قال: إني قاضي أمير المؤمنين. قال مالك: ذلك أهون لك. قال القاضي: إني لا أعود... فأمر مالك غلامه بإخلاء سبيل قاضي أمير المؤمنين.

وان شرار الناس في المدينة يتكاثرون بالمسائل تكاثر أهل الدراهم بالدراهم. ولقد توقع عمر هذا السرف الفكري فحرج على كل امرئ سأل عن شئ لم يكن. فإن الله بين ما هو كائن. وابن عمر يقول: "لا تسألوا عما لم يكن فإني سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن".

ولقد سئل عمار بن ياسر عن مسألة فقال: هل كان هذا بعد؟ قالوا: لا. قال: فدعونا حتى يكون، فإذا كان تجشمنا لكم.

وفي الحديث أن الرسول عليه السلام نهى عن الأغلوطات وهي التي عناها معاوية، حين قال: "أما تعلمون أن رسول الله ﷺ نهى عن عضل المسائل"؟

ويدخل على مالك عبد الله بن المبارك (١٨١) وصحبه فيقولون: حدثنا ولا تحدثنا إلا بحديث الزهري. فلا يحدث ولا يناقش. وإنما يأمر بهم كلهم أن يؤخذ بأيديهم ويقاموا عنه. فيقومون! وفي الغداة يعودون معتذرين فيعتبهم ويحدثهم بحديث الزهري.

وسيمسي عبد الله، بعد إذ أحسن التلقي على الشيخ، أقرب الناس إلى قلبه، يتزحزح له في مجلسه ثم يقعده بلصقه. قال يحيى بن يحيى: ولم أره يتزحزح لأحد في مجلسه غيره. وابن المبارك تلميذ سابق لأبي حنيفة. فيه قول عبد الرحمن بن مهدي زعيم المحدثين بالعراق، وهو الخصم الألد لأبي حنيفة: الأئمة أربعة: الثوري، وحماد بن زيد، وابن المبارك، ومالك. وفيه قول سفيان بن عيينة زعيم المحدثين بمكة: نظرت في أمر الصحابة فما رأيت لهم فضلا على ابن المبارك إلا بصحبتهم وغزوهم مع النبي ﷺ.

والذي يصنعه مالك مع إمام المشرق يصنعه مع إمام الشام بقية بن الوليد يسأله عن ست مسائل فيجيبه، فيسأله السابعة فيرد مالك: أكثرت، ثم ينادي فيأخذ رجلان بضبعيه ويخرجانه.

روى الطبري: سمعت إسماعيل الفزاري يقول: دخلت على مالك بن أنس وسألته أن يحدثني فحدثني اثنى عشر حديثا ثم أمسك. فقلت له زدني أكرمك الله. وكان له سودان قيام على رأسه فأمرهم. فأخرجوني من داره.

ولو لم يصنع ذلك، والمتفقهون مئات، ولهم إصرار، لما وجد الشيخ نفسه.

كانت حلقة الأتباع، والأئمة أولى بالاستجابة لأوامر إمامهم، ليتبعهم الناس، فذلك درس للأئمة والناس.

فإذا صنع أحد في المسجد ما لم يصنع السلف الصالح. كان مالك ضده، بالفقه وبالقوة. نبهه الناس على رجل يضع رداءه بين يديه في الصف، بأمر اثنين من الحراس بحبسه فحبس، وإذا المحبوس عبد الرحمن بن مهدي قدم المدينة، ودخل المسجد فصنع ما لا يصنعونه. فقال له مالك: أما خفت الله واتقيته أن وضعت ثوبك بين يديك في الصف وشغلت المصلين بالنظر إليه، وأحدثت في مسجدنا شيئا ما كنا نعرفه. وقد قال النبي ﷺ: "من أحدث في مسجدنا شيئا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"؟

فبكى ابن مهدي جزعا.

وهذه الحادثة الصغيرة، تجمع خصائص الصورة، من الاتباع الكامل، حتى للماديات... ومن اقتناع مالك بأن المحافظة على عمل أهل المدينة فيها المحافظة على السنة، وإن في هذا الميدان عمله وإنه خلق له.

* * *

وللشيخ هيبة تظهر في لقاءات سلاطين الأرض وعلمائها. يقول الشافعي – الذي لا يهاب –: "ما هبت أحدا قط هيبتي من مالك بن أنس.." فحفظ الموطأ قبل أن يرحل إلى المدينة ليجلس إليه، وختم القرآن ست عشرة مرة في طريقه بين مكة والمدينة، مستعينا بالله، واستوصى والي مكة إلى والي المدينة ليقدمه الواليان إلى مالك! وسعى الوالي إلى باب مالك، قالت الجارية له إن للدرس يوما، فتتوسل بأن معه خطابا من والي مكة في أمر مهم! ومالك يلقاه فيلقي الخطاب ويقول: صار العلم يطلب بالوسائل!... فلما جلس إليه الشافعي ارتاح الشيخ لتلاوته وقربه، وعلمه، عشر سنين، قدمت لنا العقل العلمي الذي لا نظير له: أنجب التلاميذ في مدرسة مالك.

ولما سأل أبو يوسف (٩٥ – ١٨٣) إمام المدينة في حضرة الرشيد فلم يجبه، قال الرشيد أجبه. وكان أمرا من أمير المؤمنين تجب له الطاعة. قال مالك – لعدل الرشيد – الذي كان يحج معه عدلا له على بعير –: "إذا رأيتنا جلسنا لأهل الباطل فتعال حتى أجيبك". أو قال: "ها هنا من تلاميذنا من يبلغ حاجة أمير المؤمنين". وتختلف الأقوال في سؤال أبي يوسف لمالك. وأبو يوسف أستاذ مدرسة في العراق برعت في المناقشات والافتراضات، وهو قاضي القضاة، فكان طبيعيا أن يحاول ليظفر في ظلال الرشيد بمظهر الغلبة، في فرصة أتيحت له، إذ رضى أن يجادله.

سأل أبو يوسف عن محرم كسر ثنية ظبي. ما حكمها؟

قال مالك: عليه الفدية.

وضحك أبو يوسف وقال: وهل للظبي ثنية!

ولعل السؤال قديم توارثه أبو يوسف من حلقة أستاذه أبي حنيفة عن سؤال وجهه إليه جعفر الصادق أستاذ مالك! قالوا سأل جعفر أبا حنيفة ما تقول في محرم كسر ثنية ظبي؟ قال إمام أهل الرأي: يا ابن رسول الله ما أعلم ما فيه. أنت تتداهى! أولا تعلم أن الظبي ثنى أبدا[٩]؟

وعظم أدب الإمام الأعظم في حضرة إمام أهل البيت!

ولم يك مالك مزاحا،ولا كان يقبل المزاح أمامه. بل كان قليل الضحك ويتغالى الرواة فيقولون إن مالكا في خمسين سنة لم يضحك إلا مرة أو مرتين أو نحو ذلك، كان ضد القهقهة، فهي ليست من جلال السلوك يقول: من أدب العالم ألا يضحك إلا تبسما.

ويقول: ينبغي لأهل العلم أن يخلوا أنفسهم من المزاح وخصوصا إذا ذكر العلم، فما بالك بالشيخ إذا جعله أبو يوسف موضح المزحة! لقد خرج مالك عن حلمه إلى الحدة – فتوجه إلى الرشيد يسائله: يا أمير المؤمنين. سفيه يسأل عن مسائل السفهاء، كيف توليه أمور المسلمين! وفي رواية أخرى، إن أبا يوسف سأل مالكا، فامتنع عن جواب سؤاله فاستعدى عليه الرشيد قائلا: يا أمير المؤمنين، قل له يجيبني. قال مالك: ساء ما أدبك به أهلك؟!

يقول ذلك صاحب الموطأ وهو الذي يروي هنالك:

"مالك عن ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن رجلا سأل رسول الله: يا رسول الله علمني كلمات أعيش بهن، ولا تكثير علي فأنسى، فقال رسول الله ﷺ: "لا تغضب" ويروى هنالك أيضا عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: "ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب".

كان قد تخطى الثمانين، مستقرا في أوجه من عشرات السنين، فأين كان منه القضاة وقضاة القضاة، ولو كانوا في مجلس الرشيد.

ولقد كان المجلس عندما يجلس فيه مالك، هو مجلس مالك.

مع هذا فأبو يوسف قد درس الموطأ لمالك، من بعيد. عن طريق واحد من حفاظه ليقرب مع محمد بن الحسن طريقة مدرسة العراق إلى طريقة مدرسة المدينة.

---

(٩) الثني الذي يلقى ثنيته. وهي أسنان مقدم الفم. ثنيتان من فوق وثنيتان من أسفل.

فأبو يوسف الذي لا يهاب الرشيد، يصطنع الدهاء لجدال مالك، أو يستعين عليه بالخليفة، ومالك لا يهاب الخليفة، بل كان الخلفاء له أهيب، والناس أهيب له منهم للخلفاء. قال سعيد بن هند الأندلسي ما هبت أحدا هيبتي عبد الرحمن بن معاوية[١٠] فدخلت على مالك فهبته هيبة شديدة صغرت معها هيبة عبد الرحمن.

لقد تقدمت بالشيخ السنون، وكأن الناس من طول عمره وجلال قدره لم يروه إلا شيخا، فلقد صار جدا لأكثر من جيل من الفقهاء الفحول، وهو في عنفوان عافيته.

* * *

ولقد يجيئه الرجل بعد ستة أشهر مشاها،فيسأله عن مسألة فيقول له مالك: "أخبر الذي أرسلك أنه لا علم لي بها" فيقول الرجل من أهل المغرب: ومن يعلمها؟ ويقول مالك: "من علمه الله" أو يقول: "ما سمعنا بهذه المسائل في بلدنا، ولا سمعنا أحدا من أشياخنا تكلم فيها..." فيقول الرجل يا أبا عبد الله، تركت خلفي من يقول ليس على وجه الأرض أعلم منك. فيقول مالك غير مستوحش: "إذا رجعت فأخبرهم أني لا أحسن".

وربما وردت عليه المسألة فيفكر فيها ليالي، وربما وردت عليه خمسون مسألة فلا يجيب منها في واحدة.

ويحكي الشيخ عن حاله: ربما وردت علي المسألة تمنعني من الطعام والشراب والنوم. قيل له: يا أبا عبد الله، والله ما كلامك عند الناس إلا نقر في حجر، ما تقول شيئا إلا تلقوه منك. فيقول فمن أحق أن يكون هكذا إلا من كان هكذا.

ويتردد مالك ويفكر في الفقه أو يبكي وهو يذكر اليوم الآخر فيقول: "إني أخاف أن يكون لي من المسائل يوم وأي يوم". وذات يوم ألح عليه السائل في الجواب فقال: ويحك تريد أن تجعلني حجة بينك وبين الله. فأحتاج أنا أولا أن أنظر كيف خلاصي ثم أخلصك.

وإلى جوار خوف الله كان الخوف على الفقه ذاته. سأل رجل سالم بن عبد الله بن عمر في شئ فقال: لم أسمع فيه شيئا. ولما ألح قال سالم: "لعلي إن أخبرتك برأيي ثم تذهب فأرى بعد

---

(١٠) (ابن هشام بن عبد الملك بن مروان) وهو عبد الرحمن الداخل الذي فر من مذابح السفاح فتى غض الإهاب لينشئ أعظم دولة للإسلام في أوروبا، وأعظم دولة أوروبية في القرون الوسطى، نقلت عنها أوروبا علوم الإسلام التي بدأ بها عهد النهضة طريقه إلى العصور الحديثة.

ذلك رأيا غيره فلا أجدك" وسيتعلم هذا الدرس مالك. ففي يوم قال للسائل: يرجع أهل الشام إلى شامهم وأهل العراق إلى عراقهم. وأهل مصر إلى مصرهم، ثم لعلي أرجع عما أفتيهم به، ولما روى السائل هذه الواقعة لإمام مصر الليث بن سعد بكى وقال: "مالك والله أقوى من الليث".

وإنما أراد إمام مصر أن يشيد بتحري إمام المدينة، وتثبته، وإيثاره الريث على العجلة.

سأل بشر بن عمر مالكا عن رجل. فقال: "هل رأيته في كتبي؟ قال لا. قال لو كان ثقة لرأيته في كتبي".

وذاعت لماك مقولات عظيمة في التثبت مثل: "إذا عرض لك أمر فاتئد وعاير على نظرك بنظر غيرك، فإن العيار يذهب عيب الرأي كما تذهب النار عيب الذهب" ومثل "العلم نور لا يأنس إلا بقلب خاشع" ومثل: "إن هذا العلم دين فانظروا عن تأخذون دينكم". وما أراد إلا إلزام العلماء أن يكونوا قدوة بما يقولونه وما ينقلونه. لهذا وكثير غيره سئل ابن حنبل: الرجل يجب أن يحفظ حديث رجل بعينه فحديث من يحفظ؟ قال: يحفظ حديث مالك. قيل فالرأي؟ قال: رأي مالك. والشافعي هو القائل: "وما في الأرض كتاب من العلم أكثر صوابا من موطأ مالك".

وتناقل المتفقهة، للقدوة والأسوة، ورع مالك في الفتيا، فهو يسأل عن ثمان وأربعين مسألة فيقول في اثنتين وثلاثين منها "لا أدري" ويسأل من العراق عن أربعين مسألة فلا يجيب منها إلا في خمس. ويروي مالك عن أستاذه ابن هرمز قوله: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول "لا أدري" حتى يكون ذلك أصلا في أيديهم يفزعون إليه. وكان ابن هرمز يقول في أكثر ما يسأل عنه لا أدري ويقول مالك لمن راجعوه في "لا أدري" – "وإيش منزلتي حتى أدري ما لا تدرون... هذا ابن عمر يقول لا أدري فمن أنا، وإنما أهلك الناس العجب وطلب الرياسة".

ولقد طالما قال مالك: "إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه".

ورووا عن ابن عباس ما يرويه مالك عن ابن عجلان: إذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مفاصله، وظاهر ذلك أن أستاذي الحجاز معا ابن عباس وابن عمر كانا صاحبي هذه الطريقة، تبعهما فيها القاسم بن محمد بن أبي بكر في متى والمسلمون يسألون فيقول: لا أدري، لا أعلم – فلما أكثروا عليه قال: والله لا نعلم ما تسألوننا عنه، لو علمنا ما كتمناكم. قال أبو الزناد: ما كان

يجيب إلا في الشئ الظاهر. وابن عباس وابن عمر والقاسم يمثلون فقه بني هاشم. وبني عمر وأبي بكر وعائشة رضي الله عنهم[١١].

سمع ابن القاسم مالكا يقول: إني لأفكر في مسألة من بضع عشرة سنة ما اتفق لي فيها رأي إلى الآن. وكان يقول ربما وردت علي المسألة فأسهر فيها عامة ليلتي. ويروي عنه ابن وهب أنه عندما يكثر عليه السؤال يكف عن الجواب ويقول: حسبكم، من أكثر أخطأ.

وكلما ازداد الشيخ علوا زاده الله تواضعا وورعا.

يقول: "من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار فلينظر كيف يكون خلاص الآخرة ثم يجيب". فإذا جلس نكس رأسه وحرك شفتيه بذكر الله، ولم يلتفت يمينا ولا شمالا، وقد يسأله عن مسألة فيتغير لونه، وكان أحمر فيصفر، وينكس رأيه ويحرك شفتيه ويقول: ما شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال إسماعيل بن أويس: كان خالي لا يفتي حتى يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قالوا لم يفت فتوى إلا تلا هذه الآية: (إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين).

ويقول: ما شئ اشد علي من أن أسأل عن مسألة من الحلال والحرام، لأن هذا هو القطع في حكم الله. ولقد أدركت أهل العلم والفقه ببلدنا إذا سئل أحدهم عن مسألة كأن الموت اشرف عليه، ورأيت أهل زماننا هذا يشتهون الكلام والفتيا، ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غدا لقللوا من هذا، وإن عمر بن الخطاب وعليا وعامة خيار الصحابة كانت ترد عليهم المسائل ويسألون ثم حينئذ يفتون فيها. وأهل زماننا هذا قد صار فخرهم الفتيا... ولم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا الذين نقتدي بهم، ويعول الإسلام عليهم، أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام. ولكن يقول أنا أكره كذا وأرى كذا. وأما حلال وحرام فهذا الافتراء على الله.

---

(١١) ترك الأمور لذوبها والتوقف فيها عند اللزوم، درس قديم ألقاه الأستاذ الاجتهاد عمر بن الخطاب حين لم يدر وجه الصواب، فاتخذ الحياد موقفا له. قدم الشام على حمار فتلقاه معاوية في موكب ضخم، فأعرض عنه فجعل معاوية يمشي إلى جنبه راجلا قال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل! فأقبل عليه عمر وقال: يا معاوية، أنت صاحب الموكب مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين قال: ولم ذلك؟ قال لأني في بلاد لا تمنع من الجواسيس،ولا بد لهم ما يردعهم من هيبة السلطان. فإن أمرتني بذلك أقمت عليه وإن نهيتني عنه انتهيت. قال عمر: إن كان الذي قلت حقا فإنه رأي أديب. وإن كان باطلا فإنها خدعة أريب. لا آمرك ولا أنهاك.

ولا يكتفي الإمام باختيار الصيغة الورعة، بل قد يطلب أجلا يراوض فيه نفسه، لا يدلي بالرأي إلا فيما تمكن منه، ولهذا كثر امتناع مالك عن الإفتاء في المسائل أو تريثه باصطناع صيغ رفيعة، فربما قال: "لا أحسن" أو "ليس نبتلى بهذا الأمر"، أو "ليس هذا بلدنا"، أو يقول للرجل: "اذهب حتى أنظر في أمرك".

ولا فقه إلا بورع. سأل شداد بن حكيم، تلميذ محمد، أسد بن عمرو البجلي تلميذ أبي حنيفة عن صاحبيه الآخرين: زفر وأبي يوسف: أيهما أفقه؟ قال أسد: زفر أورع. قال شداد: عن الفقه سألتك. قال أسد: بالورع يرتفع الرجل.

* * *

ولم تكن المدرسة في المسجد وحده، بل كانت في الدار أيضا، ولم تكن بمناقشات الحلقة وحدها، فمنها ما كان يأخذ شكل أسئلة وإجابات مدونة. قال المغيرة: تعالوا نجمع كل ما بقى علينا أن نسأل عنه مالكا. فمكثوا يجمعون ذلك وكتبوا في سجل ووجه به المغيرة إليه فأجابه في بعضه وكتب في الكثير منه لا أدري، فقال المغيرة: يا قوم والله ما رفع الله هذا الرجل إلا بالتقوى، من كان يسأل في هذا فيقول: لا أدري.

وتعلم ابن حنبل على مالك تقواه – فكان يقول: "سلوا غيري" فإن قيل من نسأل؟ قال سلوا العلماء.

وتأتي المسائل من بعيد ومن قريب، ومن الجمهور ومن الأمير، والشيخ على نهجه... يقول لا أدري. فيما لا يدري. قال السائل إنها مسألة خفيفة سهلة. أردت أن أعلم بها الأمير. قال مالك: ليس في العلم شئ خفيف، أما سمعت قول الله تعالى: (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا).

والحلقة ملأى بدراسات الزهد في عرض الحياة الدنيا، مثل ما يروي معن عن مالك: أن سلمان كان يستظل بالفئ حيثما دار، ولم يكن له بيت، فقيل له: ألا تبني لك بيتا تسكن به؟ قال نعم، فلما أدبر القائل سأل سلمان كيف تبنيه؟ قال: إن قمت فيه أصاب رأسك وإن نمت أصاب رجليك.

ويكثر الحديث في الحلقة عن خلافة خامس الراشدين (عمر بن عبد العزيز) كدرس من دروس الدين.

التلاميذ في الحلقة:

الزملاء والخلفاء

والناس يفدون من كل فج عميق، خفافا وعلى كل ضامر، حجيجا ومتفقهين، وكلا الحج وتعلم العلم فريضة. ومالك يمثل عند جمهور المتفقهين "عظمائهم" صحة الحديث، ويمثل عند الجمهرة رواته، من المدينة المنورة، فهو أمل الخاصة والعامة، وهم في حجهم يشهدون منافع لهم ومنها أن يروا مالك بن أنس في مسجد النبي، ومجلس – أو دار ابن مسعود.

وليس من الميسور إحصاء من غشى الحلقة من طلاب الفقه أو من عداهم على مدار أعوام سبعين. وفي أجيال ثلاثة متعاقبة. والحلقة عاملة ناصبة، وكأنما هي منسك لا بد من إتيانه لأهل الفقه، فإذا كانت في المسجد فهي جامعة أو كصلاة جامعة، وإذا كانت في الدار فهي زحام يحتاج لآذن، وسودان يقيمون من يقام.

والناس أجناس. فيهم الفرس والمصريون، والترك والعرب، والأفارقة، والآسيويون، وأهل أوروبا من الأندلس، ومنهم الخلفاء من نسل المنصور: المهدي الهادي، والرشيد والأمين والمأمون، ومنهم الولاة الكبار وأمراء المدينة الذين كانوا له تبعا، ومنهم أئمة الإسلام يتوافدون إماما بعد إمام، ليستوثقوا من علمهم، بعياره على علمه، يتصدرهم أبو حنيفة، والأوزاعي والحمادان: ابن زيد (١٩٨) وابن سلمة (١٦٥) والصاحبان: محمد وأبو يوسف، والسفيانان: (الثوري وابن عيينة) والليث بن سعد إمام مصر، وابن مهدي إمام العراق، وعشرات من تلاميذ هؤلاء، ومئات من الآخرين أو آلاف.

ومع أن مالكا لم يكن يجادل أحدا، بل يقول فيتبع الناس ما يقول، فلم يستطع إلا أن يجادل الإمام الأعظم أبا حنيفة، ويقول مالك – لليث – وهو يمسح العرق عن جبينه: عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري!! أما أبو حنيفة فيقول عنه لليث: ما رأيت أسرع منه بجواب أصدق.، ونقد تام.

وأما أشهب بن عبد العزيز تلميذ مالك فيقول: "رأيت أبا حنيفة بين يدي مالك كالصبي بين يدي أبيه" ويرى المؤرخون ذلك أدبا من أبي حنيفة لأنه أسن من مالك بثلاث عشرة سنة. والحق كذلك أن الأدب العظيم كان بعض وسائل أبي حنيفة للظفر بمجادليه.

وكان أبو حنيفة يقدم عليه بأفكار تحدثها عنده مراجعة كتبه قال: إبراهيم بن طهمان (١٦٣) أتيت المدينة ثم قدمت الكوفة فأتيت أبا حنيفة فقال: هل كتبت عن مالك بن أنس شيئا؟ قلت نعم. قال: حدثني بما كتبت عنه، فأتيته به، فدعا بقرطاس ودواة وجعلت أملي عليه وهو يكتب.

ويتلقى على مالك شيوخه أنفسهم قبل أن يتلقى عليه تلاميذه، فلما بلغ الخمسين من العمر لم يكن في المدينة مثله، ولما فارق أبو حنيفة الحياة الدنيا في منتصف القرن لم يبق على ظهر الأرض لدة له – مدة ثلاثين عاما – وكثر تلاميذه من أهل العراق يتزودون من الآثار والسنن، وبهذا كانت نهضة الفقه في العراق سببا في ازدهار الفقه عموما، وفقه المدينة معه، وأحدث مالك أعظم الأثر في الدولة الجديدة لقيامها على أساس ديني، وفي الكوفة حيث مدرسة أبي حنيفة وهي مدرسة اتباع كمدرسة المدينة، تجتهد فيما لا نص فيه.

وترتب على هذين الاعتبارين أن مدت مدرسة أبي حنيفة إلى المدينة بالأسباب كمثل ما صنع الخلفاء متعاقبين، وتجمعت الأسباب علمية ودينية وسياسية عند مالك بن أنس. يتتلمذ عليه كاتب المذهب الحنفي محمد بن الحسن سنوات يتلقى فيها موطأه ويتلقاه أبو يوسف قاضي قضاة المذهب بطريق غير مباشر.

ويجري تلاميذ الإمام الأعظم أبي حنيفة والصاحبين أبي يوسف ومحمد في تيار أئمتهم وتيار الدولة الدينية فيتبارون في دراسة السنن والإكثار منها، وزادتهم ولاية القضاء إقبالا وإكثارا، ولا قضاء في أمور الدين والدنيا إلا على أساس السنة.

ويقدم الخلفاء حجيجا أو زائرين، أو أصحاب طلبات، يعلنون إكبارهم فراح يعبر السنين مبايعا له من خلفاء بني العباس وهم أبناء عم الرسول المنحدرون من أعظم فقهاء مكة على الإطلاق عبد الله بن عباس،وهم في الوقت ذاته أوعية من أوعية العلم الديني والأدبي. وهم – بعد أن تستقيم أمور الدولة لهم – أئمة عدل ونصفة يعملون لسيادة الشريعة. ولهذا طلبوا إلى مالك أن يجعل السنن المجموعة في كتابه قانونا يحمل الناس عليه وتضرب رقابهم لطاعته وأبى مالك ما طلبوه، فليس من دين الله أن يفرض مالك على البشر كتابه، والناس في فجاج الأرض يختلفون أعمالا وحضارة واجتهادا وإن اتفقوا إسلاما.

وليس غريبا أن يكون في الحلقة كل هذا النشاط ويكون فيها من التلاميذ مثل الشافعي، ومع ذلك لا نسمع فيها مشابه للمساجلات التي حفلت بها حلقات الشافعي في مكة أو بغداد أو الفسطاط أو حلق المتفقهين من تلاميذه وتلاميذ مدرسة أبي حنيفة أو حلقات أبي حنيفة نفسه. أو

مناظرات كهيئة من مناظرة ابن سريج إمام الشافعية لداود الظاهري (٢٧٠) إمام أهل الظاهر. قال له داود: أبلعني ريقك! قال ابن سريج: أبلعتك دجلة! ولما تناظر داود والطبري (٣١٠) – والطبري شافعي صار صاحب مذهب – كلم واحد من أتباع داود الطبري بكلمة مضة فترك داود كلام هذا الرجل سنة!

وينهى الناس تلاميذ أبي حنيفة إذ يخطئون أستاذهم ذاته. فيقول هو للناس: دعوهم فهم لا يفقهون إلا بهذا.

أما مالك فيلقي الدرس ليتبع ما يقول دون جدل، وليس ذلك هو التقليد، فالتقليد هو المجاراة دون فهم، أو مع تعطيل العقل. والاتباع أخذ بالسنة مع الفهم لها، ومالك إمام رأي كالشافعي وأبي حنيفة اللذين عاصراه، يستلزم الاجتهاد.

* * *

وإنك لتستطيع أن تتصور في يقين أن جميع أئمة العصر وعظمائه الذين حجوا حضروا حلقة مالك.

قال نجيد الترمذي: كنت عند مالك وعنده محمد والمأمون يسمعان. فلما فرغا قال أحدهما (إما المأمون وإما محمد الأمين): يا أبا عبد الله، أتأمرني أن أكتبه بماء الذهب؟ قال لا تكتبه بماء الذهب ولكن اعمل بما فيه.

وقال "القاضي الفاضل" وزير صلاح الدين: "ما أعلم رحلة إلى مالك في طلب العلم – يقصد رحلة خليفة – إلا للرشيد – فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ. وكان أصل الموطأ – سماع الرشيد – في خزانة المصريين "يقصد تلاميذ مالك المصريين"، ثم رحل صلاح الدين بولديه لسماعه على أبي طاهر السلفي... لا أعلم لهما ثالثا".

ولعل القاضي الفاضل لا يسلم أن المهدي بعث إليه ولديه موسى وهرون (الهادي والرشيد).

فبهذا سمع الموطأ في حلقة الدرس خلفاء الدولة العباسية الأربعة أو الثلاثة على الأقل وفيهم اثنان من أعظم رجال التاريخ العالمي الرشيد والمأمون، على كل قول، وسمعه صلاح الدين وولداه عثمان وعلي – العزيز والأفضل – بعد قرون.

قالوا: لما قدم المهدي المدينة بعث إلى مالك فأتاه وطلب إلى ولديه (موسى الهادي وهرون الرشيد) أن يستمعا إلى مالك في مجلس المهدي. فأبى مالك إلا أن يستمعا إليه في مجلسه هو (مجلس مالك) فسيرهما المهدي إليه. وفي الحلقة طلب إليه مؤدبهما أن يقرأ عليهما فقال له: إن أهل هذه المدينة يقرأون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم. فإذا أخطأوا أفتاهم. فذهب المؤدب للمهدي يقول: إن الشيخ منعهم من السماع. فبعث إلى مالك يسأله قال مالك: سمعت ابن شهاب يقول: جمعت هذا العلم من رجال في الروضة وهم سعيد بن المسيب، وأبو سلمة، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، ونافع، وابن حزم ومن بعدهم أبو الزناد وربيعة ويحيى بن سعيد. كل هؤلاء يقرأ عليهم، ولا يقرءون. قال المهدي هؤلاء قدوة، سيروا إليه.

وهكذا فرض مالك قانون الحلقة على خليفة يضع القوانين.

وتلقى البخاري ذلك الدرس وألقاه على وال صغير، لنيسابور، طلب حضوره إليه ليحدثه فقال: إن شاء الأمير أن يحضر إلى الجامع فيسمع مع الناس فإن العلم يسعى إليه ولا يسعى. فنفاه فذهب إلى خرتنك حيث مات سنة ٢٥٦.

التلاميذ في الحلقة

جيران الرسول

والتلاميذ كثيرون في حلقة مالك. منهم الدائمون وغير الدائمين، ولقد كانت الأعمار تقصر دون عمره، وكانت المدنية العظيمة أضيق من أن تسع تلاميذه، وهم ينصبون عليه من كل الأقطار، وفي كل الأعمار، من وسط آسيا في خراسان أو غرب أوروبا في الأندلس، ومن أفريقية ومن مصر، وانطبعت الحلقة بطابع الشيخ الذي طبع به الفقه الإسلامي كله، فتناقلت البلدان الأخرى طابع المدينة المنورة.

وتلاميذ مالك وجه امتياز يمتاز به ممن عداه، فالذين تلقوا عليه مباشرة يمثلون بلدان الإسلام كلها في قاراتها الثلاث.. ذلك من ناحية المكان أما من ناحية المكانة فهم ليسوا تلاميذ فحسب. بل هم أئمة مذاهب، يتصدرهم الشافعي وهو أستاذ ابن حنبل، وكذلك محمد بن الحسن، وهو صاحب أبي حنيفة، وابن القاسم وأسد بن الفرات. وهو أمر جد طبيعي لأن مالكا يمثل السنة، وهي جماع لمذاهب.. ينسب إلى بعضها اتباع النصوص فيكون آية في الاجتهاد. وينسب لبعضها الاجتهاد وهي دقيقة الاتباع وينسب إلى بعضها التشدد فتراه فياضا بالسماحة لأنها كلها وسائل لتحقيق مقاصد الشرع ورحمته واسعة.

وليس غريبا أن يتصدر الشافعي تلاميذ مالك وهو من أواخر الذين تلقوا عليه. فالسماء قد جادت بالشافعي ليكون تحديدا علميا لطريقتي الإمامين اللذين سبقاه في الحياة، ولم تشأ السماء أن تحرم الإسلام أبا حنيفة في سنة ١٥٠ إلا أن تهبه الشافعي في العام ذاته ليتتلمذ في الغد على محمد صاحب أبي حنيفة. ولم تشأ أن تحرم مكة من إمام مثلما جادت على كل من المدينة والكوفة بإمام، ولم تفصل بين مالك وابن حنبل بل وصلتهما بالشافعي، وفي الشافعي تلتقي المذاهب الأربعة.

وإذا كان الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤) قد ذهب مذهبا جديدا إلى جوار مذهبي الإمامين اللذين سبقاه فإنه كان دائما يذكر مالكا على أنه أستاذه، وكلما تجلى الشافعي للمسلمين إماما عالي الجرس، عظيم الأثر، كان ثمة ما يستوجب الشكر، لسنوات عشر، في حلقة شيخه مالك.

وعندما افترقا وصاه مالك: "لا تسكن الريف فيضيع علمك، واكتسب الدرهم، ولا تكن عالة على الناس، واتخذ لك ذا جاه ظهرا لئلا تستخف بك العامة، ولا تدخل على ذي السلطنة إلا وعنده من يعرفك وإذا جلست عند كبير فليكن بينك وبينه فسحة لئلا يأتي إليه من هو أقرب منك

فيدنيه ويبعدك فيحصل في نفسك شئ" لكن الشافعي حيى حياته على طريقته في اقتحام وقوة – وكانت عين السماء ترعاه.

وكان طبيعيا أن يتتلمذ على مالك المشهورون من تلاميذه في النصف الثاني من القرن، ولقد كان عندئذ فرد الدهر، يعبر الخمسين إلى الستين في قمة الفقه العالية.

ومن التلاميذ الحجازيين كذلك المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي (١٨٦) وكان يقعد إلى جوار مالك، في مجلس لا يشركه فيه سواه وإن غاب المغيرة بقى خاليا في انتظاره، وهو الذي أذنه مالك في أن يناظر أبا يوسف إذ طل بالرشيد أن يناظره مالك، وهو الذي رأس الحلقة بعد مالك، ولم يقبل أن يلي القضاء للرشيد.

ومنهم عثمان بن عيسى (١٨٥) وعبد العزيز بن أبي حازم (١٨٥) ومعن بن عيسى القزاز (١٩٨) كان الشيخ يتكئ عليه عند خروجه من المسجد حتى سموه عصية مالك، وهو الذي قرأ عليه الموطأ للرشيد والأمين والمأمون. ولقد جلس لنفسه مجلسا بعد موت مالك.

ومنهم عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة التيمي الماجشون وكان ينادي في موسم الحج سنة ١٦٨: لا يفتي الناس إلا مالك وعبد العزيز الماجشون (أبو عبد الملك).

وعبد الله بن نافع الزبيري (٢٢٠) وإسماعيل بن أويس وهو أصبحي وابن أخت لمالك (٢٢٦).

ومن البصرة كان عبد الله بن مسلمة القعنبي (٢٢١).

ومن بغداد محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩).

ومن نيسابور يحيى بن يحيى التميمي النيسابوري (٢٢٦).

ومن الفسطاط بمصر عبد الرحمن بن القاسم (١٩١) وعبد الله بن وهب (١٩٧) وأشهب بن عبد العزيز (٢٠٤) وعبد الله بن عبد الحكم (٢١٤).

ومن أفريقية – تونس – علي بن زياد التونسي (١٨٣) وأسد بن الفرات (٢١٣).

ومن الأندلس عبد الله بن غانم الأفريقي (١٩٠) ويحيى بن يحيى الأندلسي تمييزا له من النيسابوري (٢٣٣).

وكان مالك يقدم تلاميذه في مجلسه على سواهم، فهم أطناب الحلقة، وهم المهاجرون لحديث الرسول. ولما عوتب في ذلك قال: أصحابي جيران رسول الله ﷺ.

التلاميذ في الأسرة:

كان للنساء مجلس مع النبي، وكان لحلقة مالك من تحضر من وراء حجاب، فتفيد وتستفيد، وكان ثمة من يحضرون ولا يستفيدون، وتشاء إرادة السماء أن يكون هؤلاء أعضاء بيت مالك ذاته! والعبقرية لا تورث.

فربما شارك التلاميذ من وراء الباب بنت لمالك تكنى أم البنين، أو أم أبيها واسمها فاطمة، تقف أحيانا خلف الباب فتسمع، وإذا أخطأ الكاتب الذي يقرأ، نقرت الباب نقرا خفيفا ليفطن الشيخ لخطأ القارئ، فيصوبه.

ولقد يغشى الحلقة ابنه محمد وعلى يده باشق، وفي يده نعل كيساني، وقد أرخى سراويله عليه، فيجعله مالك درسا لأصحابه. فيقول: "إنما الأدب أدب الله. هذا ابني وهذه ابنتي" ويقول: "إن مما يهون الأمر علي أن هذا الشأن لا يورث" ثم يغشى الحلقة ابن لمحمد اسمه أحمد، سيعد فيما بعد من ضعفاء المحدثين، مات سنة ٢٥٦.

وكان للإمام ابن ثان اسمه يحيى، وقيل كان له ابن آخر هو حمادة.

على أن أعظم دروس الإمام من أسرته –يتبدى في احترامه لزوجته، وكانت أم ولد تزوجها بطريق التسري، فاستبقاها زوجة وحيدة له، وحاطها وأسرته بكل حبه واعتزازه، ولم يصنع صنيع عصره من الاستكثار من الزوجات، حيث الزوجة مرضية كافية أغراض الزوجية، أو حيث يخاف الأزواج ألا يعدلوا.

ولا مراء في أن تأثير أمه فيه، قد علمه إكبار أم ولده طوال حياتها وحياته.

الفصل الثاني

من تراث المدينة

"إن الله تبارك وتعالى لا يمل حتى تملوا اكلفوا من العمل ما لكم به طاقة"

(حديث شريف)

والمدينة ذاتها درس أول من دروس الحلقة. يروي مالك عن ابن المنكدر... قال رسول الله ﷺ: "إن المدينة كالكير "ما تنفخ به النار" تنفي خبثها، وينصع طيبها" وهي عاصمة الإسلام، وهو يسر كله.

وإمام المسلمين يبدئ ويعيد في حلقته في سيرة عمر بن عبد العزيز وفقهه وعن قواعد اليسير والعدل والورع، ويفيض في شرح مقاصد الشرع:

عن مالك أنه عليه الصلاة والسلام قال: "إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف، والسقيم، والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء". قال عليه الصلاة والسلام: "صل بهم صلاة أضعفهم".

وسمع امرأة من الليل تصلي، فقيل له هذه الحولاء بنت تويت لا تنام الليل، فكره ذلك حتى عرفت الكراهة في وجهه ثم قال "إن الله تبارك وتعالى لا يمل حتى تملوا. اكلفوا من العمل ما لكم به طاقة".

والتيسير تيسير في كل الأمور. عن عائشة أنه عليه الصلاة والسلام يقول: "سيروا بسير أضعفكم" وهو عليه السلام يقول: "الضعيف أمير الركب" قالت رضي الله عنها "ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما. فإن كان إثما كان أبعد الناس منه. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله فينتقم لله بها".

وكما علم الرسول اليسر والتسامح علم الناس السلام قال: "لا يحل لمسلم أن يهاجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما هو الذي يبدأ بالسلام".

وتتنوع دروس الحلقة فتعلم مكارم الأخلاق: مالك عن أبي الزناد... إن رسول الله ﷺ قال: "من شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه". وفي الحلقة كذلك يتعلم الناس العطاء والحياء. مالك عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب أن رسول الله قال: "أعطوا السائل وإن جاء على فرس" وهو عليه السلام يقول: "لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء".

* * *

وإمام المسلمين يقول: الاستحسان تسعة أعشار العلم، ويتخذ مقاصد الشرع، وهي أصول كلية للشريعة، أساسا ونبراسا، يبني على مقتضاه، فيجيز ما فيه مصلحة للناس تؤيدها أصول الشريعة ومقاصدها. وفي هذا جلى مالك وصلى بعده الباقون.

وهو يعطي أهل المدينة، وعملهم وعلمهم، قيمة فوق القيم، ومن الحجج لذلك أن بيعتهم للخلفاء الثلاثة الأولين كانت كافية لانعقاد البيعة فلم ينتظر الثلاثة أن ترد عليهم بيعة الأمصار.

والشيخ لا ينحاز إلى أعداء علي، لكنه أموي الهوى، وعثماني المنزع، وهو لا يخرج على السلطان، وإن كان ضد الظلم.... والشيخ دائما في خدمة (المدينة) كمثل ما كانت (المدينة) في خدمة حلقته.

ويكثر الحديث في الحلقة عن تحريم المضارة دفع الحرج، وأخذ الدين بالرفق والناس بالسماحة. وتغليب المصلحة العامة على الخاص،وتقييد الحقوق دفعا للمضارة، واستعمال الحقوق أداة للتراحم بين الناس، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "لا ضرر ولا ضرار" يحدث به مالك ويخرج عليه تخريجاته الرائعة.

وتستطرد الحلقة: مالك عن ابن شهاب.... أن رسول الله ﷺ قال: "لا يمنع أحدكم جاره خشبة يغرزها في جداره".

ومالك عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أنه قال: "كان في حائط "بستان" جده ربيع "جدول ربيع" لعبد الرحمن بن عوف فأراد عبد الرحمن أن يحوله إلى ناحية أقرب إلى أرضه فمنعه صاحب الحائط فكلم عبد الرحمن بن عوف عمر بن الخطاب في ذلك فقضى لعبد الرحمن بتحويله".

وتستطرد الحلقة في الباب ذاته فهذا أصل إسلامي أول. وهذا فارس من فوارس الإسلام الأول يحاسب به عمر الصناديد من قواده، ويأخذه بقواعده – أول من يأخذ – مالك عن عمرو

بن يحيى المازني أن الضحاك بن خليفة ساق خليجا له من العريض (واد بالمدينة) فأراد به أن يمر في أرض محمد بن مسلمة فأبى محمد فقال له الضحاك لم تمنعه وهو لك منفعة؟ تشرب به أولا وآخرا. وهو لا يضرك؟ فأبى محمد. فكلم فيه الضحاك عمر بن الخطاب فدعى محمد بن مسلمة فأمره بأن يخلي سبيله. فقال لا، فقال عمر: لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع وتسقي به أولا وآخرا. وهو لا يضرك؟ فقال محمدا لا والله. فقال عمر: والله ليمرن ولو على بطنك، فأمره عمر أن يمر، ففعل الضحاك[١٢].

وتستطرد في فقه رعاية الجار، وفي التراحم، والنصفة، فيروي مالك: "أخبرنا.. أخبرني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن عمرة حدثته أنها سمعت عائشة رضوان الله عليها تقول "سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت ليورثنه".

وتنتقل من رعاية الجار إلى رعاية الشريك: مالك.. أخبرنا أبو الرجال عن عمرة بنت عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ قال: "لا يمنع نقع بئر"[١٣].

* * *

والشيخ يكره الاختراع الذي لم يأت عن النبي عليه الصلاة والسلام، ولا عن أحد من السلف والصحابة المرضيين ما يؤيده فهذا من محدثات الأمور، مثل القيام للدعاء، والدعاء عند ختم القرآن، والاجتماع للدعاء عند الانصراف من الصلاة، والزيادة في الذبح على التسمية المعلومة، والقراءة في الطواف دائما، والصلاة على النبي ﷺ عند التعجب. سئل مالك عن الجلوس في المسجد للدعاء يوم عرفة، فكرهه فقيل له: فالرجل يكون في مجلسه فيجتمع الناس إليه ويكبرون. قال: ينصرف ولو كان في منزله لكان خيرا له... ومثل هذا مما يكون الأمر واردا فيه على الإطلاق فيقيد بتقييدات تلتزم من غير دليل على ذلك، وعليه أكثر البدع المحدثة.

---

(١٢) أقر القانون الألماني هذا المبدأ جملة بع الإسلام بثلاثة عشر قرنا أي في نهاية القرن الماضي بنص يحظر على المالك أن يمنع غير، من التدخل في انتفاعه بملكه متى كان التدخل ضروريا لتوقي خطر داهم.

(١٣) قيل هذا في البئر بين شريكين – يسقى هذا يوما وهذا يوما ويستغنى أحدهما عن يومه فيريد صاحبه السقي به فليس لصاحبه منعه مما لا ينفعه حبسه ولا يضر، تركه بخلاف الأنهار والبحار والأودية التي لا ملك فيها لأحد فإن الناس فيها شركاء لحديث: "الناس شركاء في ثلاثة: الماء، والكلأ، والنار".

والذي يعترض عليه مالك في جوهره إلزام بما لا يلزم، أو تعمل. ومالك إمام السنة، والسنة هي السماحة، والرسول يسر كله، وروح المدينة وروحها هما اتباع للسنة ويسير في كل أمر.

ولما أراد الخلفاء أن يحملوا الناس على ما في موطئه أبى حتى لا يقهر الناس على فقهه وحده. وحتى لا يحسب الناس أنه لا يصح العمل إلا بآرائه.

ولما هم الخليفة أن يبني البيت على ما بناه ابن الزبير على قواعد إبراهيم شاور مالكا فقال له: أنشدك الله يا أمير المؤمنين لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك. لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره. فصرفه عن رأيه فيه حتى لا يصير هدم البيت وبناؤه غرضا للملوك. وبهذا سد ذريعة.

ويأتسي مالك بعمل عمر كل الائتساء. ويقول أميتوا سنة العجم، وأحيوا سنة العرب، أما سمعت قول عمر: تمعددوا واخشوشنوا وامشوا حفاة وإياكم وزي العجم.

وهو أنيق في الطهارة، لا يستكثر إلا للاحتياط: سئل عن المرة الواحدة في الوضوء، قال لا: الوضوء مرتان أو ثلاث، مع أنه لا يحد في الوضوء إلا ما اسبغ. فإذا أسبغ المتوضئ الماء كفاه مرة سابغة، لكنه يرى الاحتياط لأن العامي إذا رأى من يقتدي به يفعل ذلك يتوضأ مرة واحدة، وقد لا يحسن إسباغ الماء بواحدة فيقع ما لا تجزئ الصلاة به، ولذلك لا يبيح الوضوء مرة واحدة إلا للعالم بالوضوء، بل إنه لا يبيح له أن يستمر على ذلك أمام الناس، فإذا كان لا بد له من إظهاره أمام الناس فينبغي ألا يستمر عليه فيظهره حينا وحينا يتخلف عنه.

وهو يؤصل ويقعد فقد يكون في الانحراف معصية مثل "إن رجلا نذر أن يصوم قائما ولا يستظل فأمره رسول الله ﷺ أن يجلس ويستظل ويتمم صومه" فيقول مالك: أمره عليه السلام أن يتمم ما كان لله طاعة ويترك ما كان لله معصية.

ولم يكن اتباع مالك هو التقليد فابن عمر وزيد وابن المسيب وربيعة لم يكونواو مقلدين. بل كانوا متبعين، وعمر بن عبد العزيز كان قمة في اجتهاده بين المتبعين، وسار مالك على الأمر الأول، أمر النبي وصحبه وسننه وعمله، وكان مالك يلقى على كل ما يتبعه أضواء فقهه.

إنما نشأت بدعة التقليد بعد موت مالك فارتاح البعض إلى تعطيل أذهانهم ولم يفطن المعطلون إلى أن الاجتهاد واجب إسلامي أول.

* * *

ومالك يغربل الأحاديث غربلة، وإن كان يقبل الأحاديث المرسلة ما دامت مؤيدة، ويقدم التماس بأصل قطعي على خبر الواحد، ما دام لم يعضد بأصل قطعي.

يقول له القائل: إن عند ابن عيينة أحاديث ليست عندك. فقول: "أنا أحدث الناس بكل ما سمعت؟ إني إذن لأحمق. أو: إني أريد أن أضلهم إذن. ولقد خرجت مني أحاديث وددت أني ضربت بكل حديث منها سوطا ولم أحدث بها، وإن كنت أجزع الناس من السياط" ومن أجل هذا وجدت في تركته أحاديث كثيرة لم يحدث بها في حياته.

وإذا قيل له إن هذا الحديث ليس عند غيرك تركه، وإذا قيل له عن الحديث إن أهل البدع يحتجون به تركه، قيل له إن فلانا يحدثنا بغرائب فقال: من الغريب نفر، فإذا شك في الحديث تركه كله... وكان يقول: "ليس كل ما روى الرجل – وإن كان فاضلا – يتبع، ويجعل سنة، ويذهب به إلى الأمصار" وكان ضد الإكثار من الرواية، قال لابن وهب، وهو أقدم المصريين الكبار (ابن وهب – ابن القاسم – أشهب – ابن عبد الحكم) من تلاميذ مالك: "اتق هذا الإكثار وهذا السماع. الذي لا يستقيم أن يحدث به".

قال ابن وهب: إنما أسمعه لأعرفه لا لأحدث به.

قال ما يسمع الإنسان شيئا إلى يحدث به، وعلى ذلك سمعنا من ابن شهاب أشياء ما تحدثت بها، وأرجو ألا أفعل ما عشت، ولقد ندمت ألا أكون طرحت من الحديث أكثر مما طرحت".

ويروي ابن وهب كذلك نهيه عن كثرة الجواب ووصفته من أكثر الجواب بأنه.. يتكلم كأنه جمل مغتلم، يقول هو كذا يهدر في كل شئ.

ولقد قال مالك لابن وهب: "لا تحملن أحدا على ظهرك ولا تمكن الناس من نفسك أد ما سمعت وحسبك ولا تقلد الناس قلادة سوء".

وابن القاسم يروي حوارا بينه وبين مالك قال لمالك: ليس بعد أهل المدينة أعلم بالبيوع من أهل مصر (يقصد فقه البيوع كما ورد بالسنة) ورد مالك عليه: ومن أين علموها؟ قال ابن القاسم: منك. قال مالك: "سمعت من ابن شهاب، أحاديث كثيرة ما حدثت بها قط، ولا أحدث بها، قيل لم؟ قال ليس عليها العمل".

ويروي أشهب: رآني أكتب جوابه في مسألة فقال: لا تكتبها فإني لا أدري أثبت عليها أم لا. ولقد سمعه ابن أخته إسماعيل بن أويس يقول: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم".

وكان يقول: "ما قلت الآثار في قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء ولا قلت العلماء إلا ظهر فيهم الجفاء".

ويقول: "ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله في القلب" ويعلن في نزاهة الأئمة أنه معرض للخطأ وأنه لا عاصم إلا في الكتاب والسنة فيقول: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به وما خالف فاتركوه" وهو في هذه العبارة يقدم خطأه على صوابه، آية تواضع وسماحة.

* * *

أما الذين يتكلمون في الدين بهواهم فأصحاب بدعة لا يناقشهم الشيخ لأنهم مرتابون ومريبون. حدث الشافعي قال: كان مالك إذا أتاه رجل من أهل الأهواء قال له: أما أنا فعلى بينة من ديني. وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه.

والشيخ هو القائل: الدنو من الباطل هلكة. والقول في الباطل يصد عن الحق. ولا خير في شئ من الدنيا بفساد دين المرء أو مروءته ولا بأس على الناس فيما أحل الله لهم.

وفي المتكلمين المبدعين يروي أشهب: سمعت مالكا يقول: إياكم والبدع... أهل البدع الذين يتكلمون في الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

ويروي عبد الرحمن بن مهدي أنه دخل على مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام، ولو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة كما تكلموا في الأحكام والشرائع ولكنه باطل يدل على باطل.

وسأل مالكا رجل آخر عن خلق القرآن فأجابه: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد؟ لعن الله عمرا فإنه ابتدع هذه البدعة.

وكان عمرو رجلا صالحا لكنه كان زعيم المعتزلة.

كان إبراهيم بن يحيى فقيه المدينة ينسب إلى الاعتزال،فيقول فيه مالك: إذ يسأل عنه أكان ثقة في الحديث؟ لا. ولا في دينه. فلقد كان المعتزلة أكثر شئ جدلا. ومالك يقول عن الإغراق في الجدل "إنه يقسي القلب ويورث الضغن".

ويبلغ به كرهه المتكلمين أن يقول: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غري بالحديث كذب، وكان يعيب المراء في الدين ويقول: "أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجل يريد أن يرد ما جاء به إلى النبي ﷺ جادلناه"؟ ويكره الجدال الملح ويدع الأمر لله يهدي من يشاء، قال له إسحق بن عيسى: إني ارى الرجل على غير السنة، أجادله؟ قال مالك: لا ولكن تخبره بالسنة فإن قبل وإلا فاسكت عنه.

وكان يقول: "من قال القرآن مخلوق يوجع ضربا، ويحبس حتى يتوب". قال له رجل: ما تقول فيمن قال القرآن مخلوق؟ فرد: زنديق كافر اقتلوه. فاعتذر الرجل بأنه ينقل كلام الآخرين. قال مالك: لم أسمعه من أحد وإنما سمعته منك!!

ويقول مالك من شتم رسول الله قتل، ومن شتم أصحابه أدب، فلم يكن يقبل القدح في الصحابة.

ويقول عن القدرية، أي الذين ينفون القدر: قوم سوء لا تجالسوهم، ولا تصلوا وراءهم وإن جامعوكم في سفر فأخرجوهم، ويقول: "ما رأيت أحدا من أهل القدر إلا أهل سخافة وطيش وخفة".

ويتحدث عن قول عمر بن عبد العزيز من جعل الدين غرضا للخصومات أكثر التنقل فيقول: وأراه يعني أصحاب الأهواء. ومالك يقول فيهم: "بئس القوم لا يسلم عليهم، واعتزالهم أحب إلي".

انصرف يوما من المسجد وهو متكئ على يد معن. فلحقه رجل يقال له ابن الجويرية كان يتهم بالإرجاء فقال له: يا أبا عبد الله اسمع مني شيئا أكلمك به وأحاجك وأخبرك برأيي فإن غلبتني تبعتك. قال فإن غلبتني؟ قال اتبعتني قال: فإن جاء رجل فغلبنا قال: اتبعناه قال مالك: بعث الله محمدا بدين واحد وأراك تنتقل – قال عمر بن عبد العزيز: "من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل".

والإيمان عند مالك قول وعمل. قال: أقام الناس يصلون نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم أمروا بالبيت الحرام فقال تعالى: (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم إلى بيت المقدس، أي أن الصلاة من الإيمان، وهي عمل.

ويروي يونس بن عبد الأعلى تلميذ الشافعي أن ابن وهب قال: سئل مالك عن الإيمان فقال قول وعمل، قلت أيزيد وينقص؟ قال: دع الكلام في نقصانه فكف عنه، فقلت فبعضه أفضل من بعض؟ قال نعم.

فهو كان يطلق القول في الإيمان ولا يطلق القول في نقصانه إذ لم ينص الله تعالى إلا على زيادته كما يروي ابن وهب. وفي رواية أخرى أنه قال: الإيمان يزيد وينقص، ولقد أجاب مالك بن نافع يوم سأله عن ذلك عند موت مالك قد أبرمتموني. إني تدبرت هذا الأمر فما من شئ يزيد إلا وينقص. قال ابن رشد – الجد – وهو الصحيح والله أعلم.

وإمام السنة إمام في تسامحها، وفي الرجاء للمسلمين في عفو الله يقول: "لو أن العبد ارتكب الكبائر إلا أن يشرك شيئا ثم نجا من هذه الأهواء والبدع والتناول لأصحاب رسول الله ﷺ.. لأرجو أن يكون في أعلى درجة في الفردوس، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا".

قال عمر بن حماد بن أبي حنيفة: أقمت عند مالك مدة فلما أردت الرجوع قلت: لعل بعض الحساد ذكروا جدي عندك على خلاف ما كان عليه فأذكر لك مذهبه، فإن كان فيه رضاك فذاك وإلا فعظني. إن الإمام كان لا يخرج أحدا من الإيمان بذنب قال: أصاب، قلت وكان يقول أكثر من هذا: وإن أصاب الفواحش قال أصاب. قلت وكان لا يكفر قاتل النفس. قال:

أصاب، فمن قال غير هذا فقد أخطأ وكذب، قال بلغني أنه كان يقول إيماني كإيمان جبريل قلت بلغك الباطل. كان يقول إن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ كما بعثه إلى من قبله فأمره أن يدعو الناس إلى الإيمان، فالإيمان إيمان واحد لا إيمانان أو ثلاثة، ولا إيمان هذا وإقرار ذا غير إيمان ذا وإقرار ذا. فتبسم كالراضي ولم يقل شيئا قلت: وكان ينكر الشك في الإيمان قال وما الشك؟ قلت عندنا أقوام لا يقولون إنا مؤمنون حتى يستثنوا!!! ويقول أحدهم لا أدري أنا مؤمن أم لا، فأنكر قول من يقول هذا.

هكذا جادل مالكا أبو حنيفة ثم استمع مالك لحفيد أبي حنيفة.

* * *

ازدهرت مدرسة الرأي في حاضرة العراق الجديدة فواجهت حضارة العراق وهي تنفعل بالشريعة، ولم يكن بلغها من السنن كل تراث المدينة، وآية ذلك أن عليا وابن عباس وجدا أهل البصرة بعد خمسة وثلاثين عاما من الهجرة، لا يجيدون أحكام الزكاة فدعوا الموجودين من أهل المدينة ليعلموهم! وكان عمر قد نبه الصحابة ومن معهم ممن أرسلهم إلى العراق أن يقلوا الحديث عن الرسول، ويكثروا قراءة القرآن. فكان التفريع على الأصول المسلمة في الإسلام وسيلة مدرسة الكوفة لاستخراج الأحكام بالإضافة إلى ما ثبت لديهم من نصوص، وكان الاستدلال والاستنباط وسيلة لفهم عللها، والقياس عليها، ووجد العلماء العراقيون أنفسهم يقيسون ويفترضون تحت ضغط التطور دون زلل أو تعمل، فالفقهاء حريصون في الكوفة على السنن حرص فقهاء المدينة.

والمدرستان في الواقع لا تصطرعان وإنما تتكاملان، وهما كلتاهما مدرسة رأي وسنة معا، وإن كانت مدرسة العراق قد ألهبتها وألهمتها حضارة تزداد بازدياد التقدم، ووجود المدارس القديمة في فارس، تتلاقى بها مدارس يونانية قديمة، وباضت ثمة وأفرخت مصادر شتى للخطر، ومالك يقول: "ما قلت الآثار في قوم إلا ظهرت الأهواء فيهم". فاجتمع بالعراق قلة الآثار، وكثرة النزعات، في بلد كان ميدان حروب وانتقاضات، وحسبنا أن نشير بعض الإشارة إلى بعض الفرق.

الخوارج[١٤] – نشأوا في العراق ومن نظرياتهم الفقهية – إنكار الأحاديث التي لا ترد عمن تولوه من الأئمة وتولوا أبا بكر وعمر وعثمان في السنوات الستة الأولى من خلافته. ونظريتهم في الإمامة أنها لمن يصلح من المسلمين.

---

(١٤) تحدثنا عن هذه الفرق في كتاب (الإمام الشافعي) واضع الأصول وناصر السنة، ابتداء من صفحات ١٦١ إلى ١٧٥ وحسبنا هنا بعض البيان:

الخوارج:

خرج جماعة من أنصار (علي) في صفين عليه إذ قبل التحكيم وتجمعوا في حروراء وحاربوه فهزمهم في النهروان سنة ٣٧ ثم قتله واحد منهم وانقسموا فرقا مبدؤها العام الرضا عن الشيخين أبي بكر وعمر والبراءة من عثمان لما نقموه عليه ومن علي لأنه قبل التحكيم، ومن معاوية لأنه غلب على الأمر عنوة ومن مبادئهم أن الخلافة حق لأصلح المسلمين ولا يشترط أن يكون قرشيا، وأن لا طاعة للإمام إذا خرج عن حدود الدين، ومن تعدى حدود الله من المسلمين فاسق والفاسق كافر، وكفروا مرتكبي الكبائر، وعدوا من ظاهر معاوية ولم يتبرأ من علي وعثمان خارجا من الملة.

وهم يعتمدون على ظواهر القرآن ولا يقبلون من السنة إلا ما رواه من يرضون عنه ومن الأحاديث إلا ما تداوله الناس في عهد أبي بكر وعمر. فنفر منهم الجمهور، وكان منهم عكرمة مولى ابن عباس فكان مالك، ومسلم، لا يأخذان بأحاديثه.

كانوا في الدفاع عن عقيدتهم صناديد تزدان ببطولاتهم صفحات التاريخ الإسلامي في الورع وفي الحرب، وكان بطش خصومهم أكبر – ثبت أبو بلال في القتال حتى جاء وقت صلاة الجمعة فودع أعداءه من جيوش الخليفة ريثما تنهي الصلاة فودعوه، ورمى قومه الأسلحة، وعمدوا للصلاة فجاش إليهم الموت من جيش الخليفة فاستشهدوا جميعا بين راكع وساجد وقاعد لا يخرجون من الصلاة.

وكان نساؤهم كرجالهم استبسالا في الحروب علم أبو بلال أن ابن زياد يعتزم – التنكيل بواحدة منهن تدعى البلجاء. فنبهها لتهرب قالت إن يأخذني فهو أشقى بي – فكان أشقى بها... قطع يديها ورجليها وصلبها عريانة!

ولما حبس أحدهم بهر السجان بورعه فعرض عليه السجان أن يدعه يبيت في دار. ويعود قبل الصباح كل ليلة حتى إذا كانت ليلة أمر عبيد الله بن زياد بقتل السجناء فلما كان السحر تهيأ السجين للعودة، قال له أهله اتق الله فإنك أن رجعت قتلت. قال ما كنت لألقى الله غادرا، ومضى إلى السجان قال: لقد علمت ما عزم عليه صاحبك – قال السجان. أعلمت ورجعت!

الشيعة:

أشياع أمير المؤمنين علي: انقسموا فرقا – منها الإمامية والرافضة ومنها فرقة تجعل إمامتها إلى عبد الله بن محمد بن الحنيفة، ابن علي من غير فاطمة الزهراء، وهو يكنى أبا هاشم قيل إنه أوصى عندما حضرته الوفاة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لأنه مات عنده بالشام. وهذا أوصى إلى ابنه إبراهيم وأوصى

إبراهيم قبل أن يقتله رجال مروان بن محمد إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد (السفاح) فكان هذا مدخل العباسيين الشرعي إلى الخلافة. ومن فرقهم الزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين وفي زيد وأهله يقول أبو حنيفة: "شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله فما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جوابا ولا أبين قولا لقد كان منقطع القرين" وكان يسمى حليف القرآن وقد نسب إليه (المجموع لزيد) متضمنا فقه الشيعة متأثرا بفقه العراقيين حتى ليكاد يظهر فيه منهج العراقيين. ولو صحت نسبته إلى زيد لكان في طليعة مدونات القرن الثاني. وقد قتل زيد سنة ١٢٢ وقتل ابنه يحيى في سنة ١٢٥. ساد مذهبه بلدانا منها خراسان والديلم واليمن وقامت دول شيعية متعددة – في بلدان الإسلام.

المرجئة:

رجع المقاتلون إلى المدينة (إثر مقتل عثمان وبيعة علي) فوجدوا أهلها فرقتين، فقالوا عن الفرقتين: كلهم ثقة عندنا مصدق، فنحن لا نتبرأ منهما ونرجئ أمرهما إلى الله حتى يحكم الله فيهما فقد يغفر لهما، فهو يغفر الذنوب إلا أن يشرك به، ويذهبون إلى أن الإيمان لا تضر معه معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. يقولون يكفي الإيمان بالقلب والإقرار باللسان وإن كان منهم غلاة يقولون بكفاية التصديق بالقلب فحسب.

والمرجئة لا يكفرون إلا من أجمع المسلمون على كفر، ولا يكفرون أحدا نطق بالشهادتين ولا يرون أحدا من المسلمين يخلد في النار، ولا يكفرون مرتكب الكبيرة كالخوارج، ولا يقولون إنه في منزلة من المنزلتين كالمعتزلة، ويرون الكبيرة لا تخرج من الإيمان، لا يقفون ضد عثمان – ولا على ولا معاوية ولا أصحاب الجمل. وهكذا تساوى الجميع عندهم، فكانوا سلاما – ودخل فيهم الفقهاء من كل الفرق ويعد البعض منهم الإمام الأعظم أبا حنيفة، وشيخه حماد بن أبي سليمان، وسعيد بن جبير، ومقاتل بن سليمان، وبشر المريسي – وهؤلاء من كل الآراء.

والإرجاء على الجملة يخدم الدولة، حتى لينسب إلى المأمون قوله الإرجاء دين الملوك، إذ يشيع السلام في الرعية.

والمرجئة تعتقد أن كل الطوائف المخالفة لهم مؤمنة، يدخل في ذلك الخوارج الذين يكفرون سواهم، والشيعة الذين استقلوا بنظرياتهم في خلافة علي وبنيه وفي تلقي السنة، والمعتزلة الذين جعلوا علم الكلام مدخلهم إلى الجدل الديني.

المعتزلة:

نشأت حركة الاعتزال حين هجر واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري لاختلافهما في الحكم على مرتكب الكبيرة، يقولون بنفي الصفات عن الله لمناقضة الصفات للوحدة، وما فيها من تشبيه لله بخلقه ويتصل بذلك قولهم إن القرآن مخلوق، ولا يكون كلام الله إلا على التأويل لأن صفة المتكلم منفية عن الله، فسموا أهل التوحيد لتوحيد الذات والصفات، ويقولون بنفي الجبر لأن الإنسان مخير حر، وهو بهذا مسئول، ولا ينفي هذا أن يكون الله عليما منذ الأزل بما سوف يصنعه الإنسان وسموا أهل العدل لأنهم نزهوا الله تعالى عن قول الجبرية إن الله قدر المعاصي على الناس ويقولون إن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين: الكفر والإيمان. ويقولون بتحكيم العقل في كل شئ إلا النصوص، ويعملون النصوص لأنها معقولة.

أما الشيعة فغلاة في نظريات الإمامة والحديث كذلك. قرروا أن الإمامة لعلي وآله بعده، وردوا الأحاديث إلا ما جاء عن أئمتهم، وإن كان الزيدية منهم يقرون أبا بكر وعمر.

ونجمت مخاطر أخرى على فقه المدينة بقيام المتكلمين والقدرية والمعتزلة وكانوا أشتاتا، لكن خطرهم جميع على السنن، وكان ثمة فرق أخرى.

وكان بالعراق عباقرة فكر، وأساطين فقه، وأبو حنيفة إمام الاتباع في العراق وإمام الاجتهاد في الإسلام، يعلن نظريته في الإيمان أنه إيمان بالقلب وإقرار باللسان لا يزيد بالعمل ولا ينقص، وأن الغيب لله وأنه يغفر لمن يشاء – وهي فلسفة فقهية استفاد بها المرجئة إذ يرجئون الحكم إلى حساب الآخرة، وإن كان عمل أبي حنيفة في الدين بزهادته وتعبده يهتدي به العباد والزهاد، في عصره وما بعد عصره.

وأصحاب مبدأ الإرجاء يستفيدون الثبت مما صنعه العظام من رجال الإسلام، مثل سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد، إذ لم ينضموا إلى فريق من الفرق المتنازعة يوم الجمل أو يوم صفين.

وتبعهم الجمهور إذ يرجئ الفصل بين من صلوا بنار الحرب، إلى الخالق سبحانه يوم الحساب، ويرفع عثمان وعليا إلى مقامهما العلي بين الخلفاء الراشدين.

* * *

كانت الكوفة والبصرة في العراق عاصمتين جديدتين للغة وللفكر وللفقه تعدو مدارسهما عدوا لملاحقة الانفعال الاجتماعي والاشتعال الفكري بالعراق حيث تقع الحروب الداخلية أو تنشأ أسبابها، وحيث اجتهادات الفكر والفقه تسير في خط مواز لاجتهادات المتحاربين – سعيا وراء نظام جديد للدولة تكون فيه الصدارة للعراق بدلا من الشام.

وبلغت الحروب غايتها بقيام الدولة الجديدة، للعراق في عاصمتها الكوفة، ولم تجد الكوفة أو بغداد بعد، رضاها في معاملة أهل المدينة لها، ولا وجدته المدينة من الدولة الجديدة مع قيام دولة بني العباس على أساس ديني هو عودة الخلافة إلى بيت النبي.

وكان لزاما على الدولة أن تسعى إلى المدينة تطلب فقهها وسننها.. وسعى أو خلفائها – السفاح – إلى توطيد أركانها بسفك دماء بني أمية في الشام وإلى استرضاء المدينة باستدعاء عالمها – أستاذ مالك – ربيعة بن أبي عبد الرحمن إلى الكوفة.

ولما قضى السفاح نحبه سعى أبو جعفر سعيه، إذ خلفه، فقارب مالك بن أنس وهو الذي خلف ربيعة – بل هو طلب إليه سنن المدينة ليحمل المسلمين عليها من كل أرجاء العالم.

ولم يستقر الأمر لفقهاء العراق، بعد أن انتهت إليهم ولاية القضاء بولاية أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة وظيفة قاضي القضاة وتعيين القضاة منهم في عهد الرشيد، مذ بزغ بمكة الشافعي تلميذ مالك وقصد منها إلى بغداد يجلي – بجداله – فقهاءها عن مقاعدهم.

وكان سلوك فرق العراق بكثرة التفريع والافتراض وتشقيق الفكر والكلام مشغلة علماء السنة في العراق ذاته.

فالشعبي علامة التابعين في القرن الأول بالعراق يقول: "احفظ عني ثلاثا: إذا سئلت عن مسألة فأجبت فيها لا فلا تتبع مسألتك: أرأيت. فإن الله قال في كتابه "أرأيت من اتخذ إلهه هواه" حتى فرغ من الآية. والثانية إذا سئلت عن مسألة فلا تقس شيئا فربما حللت حراما أو حرمت حلالا، والثالثة إذا سئلت عما لا تعلم فقل لا أعلم وأنا شريكك". وإذا كان الشعبي يقول ذلك لتلاميذه فمالك – كهيئة الشعبي – يجيئه من المغرب من يقول إن الأهواء كثرت في بلاده. "فجعلت على نفسي إن رأيتك أن آخذ بما تأمرني به. فيصف له شرائع الإسلام: الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج. ثم يقول: خذ بهذا ولا تخاصم أحدا" ويقول لتلميذه ابن وهب: يا أبا عبد الله ما علمته فقل به، ودل عليه وما لم تعلم فاسكت.

ومالك تلميذ عظيم في مدرسة ابن عمر وقد كان يقول: ذروني من أرأيت – وأرأيت، فكان مالك يسمى أهل العراق الأرأيتيين.

والسؤال عما لم يقع كالسؤال عما لا ينفع كلاهما تكلف والله تعالى يقول: (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين). وإذا كان السؤال لمعارضة السنة والكتاب بالرأي فهو، كالسؤال عن المتشابهات، لا ينبغي لمؤمن. والله يقول: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه).

ولما سئل مالك عن الاستواء على العرش قال ببساطة: الاستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال بدعة، ومالك في هذا الرد يتابع رد ربيعة عندما سئل السؤال ذاته فأجاب: "الاستواء غير مجهول، والكف غير معقول – ومن الله الرسالة ومن الرسول البلاغ – وعلينا التصديق".

وترك الاعتراض في مقام الطاعة والنصح محمدة. قال علي: دخل على رسول الله ﷺ وعلى فاطمة من الليل فأيقظنا للصلاة فجلست وأنا أعرك عيني وأقول: "إنا والله ما نصلي إلا ما كتب لنا، إنما أنفسنا بيد الله، فإن شاء أن يبعثها".. فولى رسول الله ﷺ وهو يقول:

(وكان الإنسان أكثر شئ جدلا)...

وفد حزن، جد سعيد بن المسيب، على الرسول فقال له ما اسمك قال حزن (ومعناه في اللغة صعب) قال الرسول: بل أنت سهل، قال حزن: لا أغير اسما سماني به أبي. قال سعيد الحفيد – فما زالت فينا الحزونة حتى اليوم.

والجدال الذي لا يقصد به بلوغ الحق لدد، وفيه قوله تعالى: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام).

ونبي هذه الأمة يقول: "أبغض الرجال إلى الله الألد الخصيم".

وكمثل الاعتراض، وكثرة الافتراض، الكلام فيما ليس تحته عمل، وكان مالك يكرهه متبعا فيه ما جاء عن عمر حين غرب صبيغا وشرده لأنه يكثر السؤال عن أشياء من علم القرآن لا يتعلق بها عمل، وربما أوقع الكلام فيها خبالا وفتنة.

* * *

والكلمة قوة، وهي في زمانها أقوى، وفي مكانها أقطع. ولذلك حق على المفتي أن يجيب مراعيا للظروف. روى ابن عباس عن ابن عوف أنه قال: "لو شهدت أمير المؤمنين – أتاه رجل يقول: لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلانا. فقال عمر: لأقومن العشية فاحذر هؤلاء الرهط. قلت لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاع الناس، ويغلبون على مجلسك وأمهل حتى تقدم المدينة، دار الهجرة، ودار السنة، فتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ويحفظوا مقالتك وينزلوها على وجهها، فقال: والله لأقومن في أول مقام أقومه في المدينة.

وأهل الورع يفتون أهل الورع، على مراتبهم، سألت امرأة الإمام أحمد عن الغزل في ضوء مشاعل السلطان، فسألها من أنت؟ فقالت أخت بشر الحافي (وكان زاهد العصر) فأجابها بترك الغزل بضوء السلطان.

وكان بشر من أولاد الرؤساء تعلم ثم تزهد، قيل له بأي شئ تأكل الخبز. قال: أذكر العافية فأجعلها له إداما، وكانت له ثلاث أخوات عابدات قانتان، منهن السائلة المشار إليها،

ومنهم التي سألت ابن حنبل أيضا: هل أنين المريض شكوى؟ فأجاب: إني لأرجو ألا يكون شكوى ولكن هو اشتكاء إلى الله تعالى.

ومالك لا يضن على الخلفاء بموعظة، وينصح الولاة جهده. كان مع الوالي مرة، فسمع أحد الرعية يثني عليه فقال له (إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم، فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك، فاتق الله في التزكية منك لنفسك ولا ترض بها من أحد يقولها لك في وجهك فإنك أنت أعرف بنفسك منهم، فإنه بلغني أن رجلا مدح عند النبي ﷺ فقال: قطعتم ظهره أو عنقه، ولو سمعها ما أفلح" وقال: "احثوا التراب في وجوه المداحين".

والشيخ يستعمل مع نفسه من التحرج والتواضع والحيطة ما يوجبه على العلماء كافة، حيث يقول: "لا يكون العالم عالما حتى يكون كذلك وحتى يحتاط لنفسه بما لو تركه لم يكن عليه إثم".

* * *

وسماحة مالك وتيسيره الحياة للناس درس من دروس حياته يكاد يتبدى في كل بادرة تبدر منه فيما عدا نظام الحلقة واتباع السنة. والسنة هي (الحنيفية السمحة) وهو سمح كريم في قوله وعمله. يقول: "لا بأس على الناس فيما أحله الله لهم" وذلك شكر لأنعم الله عليهم.

فمالك يطعم الطعام الجيد إذا كان في متناوله، ويشتريه ما قدر عليه، ويفضل على أهله وتلامذته، ويلقى الناس وأهله بوجه كريم مستبشر. ويرى ذلك من سنن الإسلام وعمل الصحابة، يهدي ويهدى إليه، ويقبل جوائز الخلفاء، ولقد تلقى تلميذه أسد بن الفرات جوائز إبراهيم بن الأغلب وقال: تلك حقوقنا عنده، والله سائله عما بقى، ولم ترق وسائل الراحة التي يتوسل بها الشيخ لواحد من زهاد جيله، فآلت إلينا كلمات معلمة تبادلاها. يقول يحيى بن يزيد النوفلي: "... إلى مالك بن أنس. أما بعد فقد بلغني أنك تلبس الدقاق. وتأكل الرقاق. وتجلس على الوطئ وتجعل على بابك حاجبا. وقد جلست مجلس العلم. وقد ضربت إليك المطي وارتحل إليك الناس واتخذوك إماما ورضوا بقولك. فاتق الله يا مالك. وعليك بالتواضع. كتبت إليك بالنصيحة مني كتابا ما اطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى. والسلام".

هذا الكتاب الذي لم يطلع عليه إلا الله تعالى قد ذاع على الأسماع عن طريق مالك، فلقد أراد كاتبه أن يكون درسا لمالك وأراد مالك أن يكون الكتاب والرد عليه درسا من دروسه

للأمة. قال يرد في تواضع الأئمة: "أما بعد فقد وصل كتابك فوقع مني موقع النصيحة، والشفقة والأدب، أمتعك الله بالتقوى، وجزاك بالنصيحة خيرا، وأسأل الله تعالى التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فأما ما ذكرت لي أني آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطئ فنحن نفعل ذلك، ونستغفر الله تعالى. فقد قال الله تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة. كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون)، وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه، ولا تدعنا من كتابك، فلسنا ندعك من كتابنا والسلام".

وينبه الغزالي على رد مالك بقوله: فانظر إلى إنصاف مالك، غذ اعترف أن ترك ذلك خير من الدخول فيه وأفتى أنه مباح، وهذا الذي يسميه الغزالي إنصافا يقابله أو يكلمه قول سفيان الثوري الإمام العابد الزاهد إلى أبعد الحدود: "الزهد في الدنيا ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ. إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد في الدنيا، وإن الرجل ليكون فقيرا، وهو راغب فيها".

وإنما استغفر مالك من عدم تقشفه، فترة وجيزة من الدهر أو من العمر، فلقد كان في عهد أبي جعفر قد تخطى الخمسين وكان يخفي عن جيرانه بكاء بنته من الجوع، والزهد أزكى للنفس، ولقد بين ليحيى إباحة الاستمتاع بما أحل الله من الطيبات لعباده، فإنما هو خير ساقه الله إليه، ولقد استغفر ورعا، لأنه قضى الربع الأخير من حياته بعد أن صلح باله في راحة جسدية نسبية، ليس فيها ترف، يبررها له علو سنه بالنسبة للأئمة جميعا بما فيهم أحمد وأبو حنيفة وإنما أتاحت له هذه الراحة أعطيات من الخلفاء لم يتخلف عنها كلها عند موته إلا ثلاثة آلاف دينار وثلثمائة دينار ونيف.

لكن مالكا قد خلف للأمة مقولة أخرى لا تقل أهمية عن الدرسين السابقين إذ يقول: "طلب الرزق ولو في شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس" ذلك أنه يخص على العمل، بلغة الفقيه، والرسول عليه السلام يقول: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير من أن يسأل الناس".

ولقد عمل الأئمة قاطبة، وعمل جلة الفقهاء وكل ميسر لما خلق له: كان ابن حنبل يعمل بالكراء ليسد خلته، وأبو حنيفة يتجر ويبذل الآلاف من كسب يده للتلاميذ وغير التلاميذ ويقول لمن ينبهه على أن له أولادا: الله للعيال أو يقول: وفي السماء رزقكم وما توعدون.

والشافعي يقضي حياته فقيرا كادحا، يعلم أو يعمل، وكأنما لم يكن لبدنه عليه حق، وتصدر مالك العمال في حلقة التدريس ابتغاء مرضاة الله فهو عامل ومحتسب، وكان لزاما أن يعلم الناس أن ليس في الاستمتاع بطيبات الحياة بأس، فهي عدة للبقاء وحافز للتقدم في أنفس البشر في الحياة الدنيا، وكان لزاما أن يعلم الفقهاء خاصة، وأن ينبه من تقتدي بهم الناس عامة، على أن ترك الاستمتاع خير من الدخول فيه، وما كان استغفاره لجريرة قارفها وإنما هو ورع الأئمة.

والعمل في الفقه ذروة في الفضل. قال عليه السلام ما رواه ابن عوف: (يسير الفقه خير من كثير العبادة) وما رواه ابن عمر (مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة) أو كما قال أبو الدرداء: وكان من الفقهاء الزهاد: ما نحن لولا كلمات الفقهاء[١٥] وصح عن ابن عباس قوله عليه السلام: "فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد".

وإذا كان الفقه أشد على الشيطان من الانقطاع المطلق العبادة فالعمل في خدمة الجماعة وتعليمها من أعظم العبادات.

كتب بعض العباد إلى مالك يحضه على الانفراد وترك مجالسة الناس[١٦] فرد عليه متخشعا في تواضع يليق بالتعليم. قال: "إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له

---

(١٥) كان أبو الدرداء يسمى حكيم هذه الأمة، وكانت زوجته أم الدرداء فقيهة مثله وزاهدة، رفضت زواج معاوية وهو خليفة بعد موت أبي الدرداء، وفيه وفي صحبه يقول مسروق: وجدت علم أصحاب محمد انتهى إلى ستة – إلى عمر وعلي وعبد الله بن مسعود، ومعاذ وأبي الدرداء وزيد بن ثابت.

دخل المسجد يوما ومعه الأتباع مثل ما يكون مع السلطان وهم يسألونه: إذ آثر التعليم.

يقول أبو الدرداء: بعث النبي وأنا تاجر، فأردت أن تجتمع لي العبادة والتجارة فلم يجتمعا، فرفضت التجارة وأقبلت على العبادة، والذي نفسي بيده، ما أحب أن لي حانوتا على باب لا تخطئني فيه صلاة وأربح فيه كل يوم وأتصدق.. قيل وما تكر، من ذلك؟ قال شدة الحساب، وهو القائل، أحب الموت اشتياقا إلى ربي وأحب الفقر تواضعا إلى ربي وأحب المرض تكفيرا لخطيئتي.

(١٦) والصوفية يقولون: "لو عرف الملوك ما نحن عليه لحاربونا عليه بالسيوف ليظفروا به". ولعل هذا الهم الملكي ما عناه قايتباي.. وكان قد استجلب في صباه إلى مصر، مع مملوك آخر، فتحدثا في الطريق مع الجمال في ليلة قمراء قالوا: لعلها ليلة القدر، فليتمن كل منا الأماني، قال قايتباي: أريد سلطنة مصر، وقال زميله أريد أن أكون أميرا كبيرا، وقال الجمال: أريد حسن الختام.

ومضت الأعوام فقال قايتباي: وقد صار سلطانا لمصر لزميله وقد صار أميرا كبيرا – لقد فاز الجمال من بيننا.

في الصلاة ولم يفتح له في الصيام، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام وآخر فتح له في الجهاد، ونشر العلم من أفضل الأعمال، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنت فيه بأفضل مما أنا فيه، فأرجو أن يكون كلانا على خير وبر".

* * *

والشيخ في قمته العالية يراسل الشيوخ العلماء ويكتب إليهم من موقع العظمة الذي استقر فيه، وأصبح من حقه عليهم أن يلفت أنظارهم ولو كانوا أئمة!! أو كانوا من لداته، فحلقة المدينة تمكنه من روادها الفطاحل، وموقعه بالمدينة درجة.

والريح تجري رخاء بين مالك والليث فهما يتحاوران في تراث المدينة أرفع حوار، فيستفيد مالك ويفيد، وربما دلت كتابة الليث بن سعد إليه وكتابه إلى الليث، على بعض الأسباب التي جعلت مالكا يرفض طلب أبي جعفر المنصور أو المهدي أو الرشيد، إلزام الأمة كلها بفقهه، تاركا للأمصار فقهها، وربما دل مالكا على ذلك جداله مع أبي حنيفة، لكن المؤكد بيقين أن في سماحة مالك في الفكر، ويسر المدينة، ومرونة الشريعة، الأساس لرفض طلبات هؤلاء الخلفاء.

كتب مالك إلى الليث ينبهه على أن الناس تبع للمدينة التي كانت إليها الهجرة ورد عليه الليث محررا وجوه الخلاف، في أروع أدب فقهي، فذكره بما شهداه معا من خلاف أهل المدينة أنفسهم، ومن عمل الآخرين كعمر بن عبد العزيز وأبي بكر بن حزم وينهي الليث الحوار بكلام عذب. "وقد تركت أشياء كثيرة أشباه هذا وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك، مع استئناسي بمكانك وإن نأت الديار، هذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه، ولا تترك الكتابة إلي بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة، إن كنت إليها، أو لأحد يوصل بك، فإني اسر بذلك، كتبت إليك ونحن صالحون معافون، والحمد لله، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم من شكر ما أولينا وتمام ما أنعم به علينا والسلام عليكم ورحمة الله"(١٧).

والقناعة سعادة، والطمع فقر، واليأس عناء وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الزهد في الدنيا يريح القلوب والبدن".

(١٧) نثبت فيما يلي كتاب مالك لدلالته على منهاجه ونثبت بعضا من رسالة الليث لطولها مقتصرين على أمثال منها ففيها ما يرد به الآخرون على منهاج مالك وفي الكتابين مثل بارعة لحسن الخطاب.

"من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، سلام عليكم فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد. عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية وعافانا وإياكم من كل مكروه.

واعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة مخالفة لما عليه الناس عندنا، وببلدنا الذي نحن فيه وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إليك، واعتمادهم على ما جاءهم منك، خليق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو الناس باتباعه فإن الله تعالى يقول في كتابه: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار... الآية) وقال تعالى: (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه... الآية)

فإنما الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل ويأمرهم فيطيعونه ويسن لهم فيتبعونه حتى توفاه الله واختار له ما عنده، صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته، ثم قام بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده ممن نزل بهم، فما علموا نفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك في اجتهادهم وحداثة عهدهم وإن خالفهم مخالف أو قال أمرا غير، أقوى منه وأولى ترك قوله وعمل بغير، ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به لم أر لأحد خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون هذا العمل ببلدنا وهذا الذي مضى عليه من مضى منا لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة ولم يكن لهم من ذلك الذي جاز لهم.

فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك لنفسك، واعلم أني أرجو ألا يكون دعائي إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده والنظر لك والضن بك فأنزل كتابي منزلته فإنك إن فعلت تعلم أني لم آلك نصحا. وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل أمر وعلى كل حال والسلام عليكم ورحمة الله".

وفيما يلي مقتطفات من كتاب الليث هي أمثال لعشرات من المسائل التي تضمنها يناقض فيها مالكا يقول:

سلام عليكم. فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، عافانا الله وإياك وأحسن لنا العافية في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكر، والزيادة من إحسانه. وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك، وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك،وقد أتتنا فجزاء ك الله عما أقدمت منها خيرا، فإنها كتب انتهت إلينا عنك، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها.

وذكرت... وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وإني يحق علي الخوف على نفسي – لاعتماد من قبل علي ما أفتيهم به وإن الناس تبع للمدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذي تحب وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكر، لشواذ الفتيا، ولا أشد تفضيلا لعلماء المدينة الذين مضوا، ولا أخذا بفتياهم فيما اتفقوا عليه مني، والحمد لله رب العالمين لا شريك له.

وأما ما ذكرت من قوله تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم)، فإن كثيرا

من أولئك السابقين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله،فجندوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه يجتهدون برأيهم فيما لم يفسر، لهم القرآن والسنة وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم، كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه، فلم يتركوا أمرا أمر به القرآن أو عمله النبي صلى الله عليه وسلم، أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهم، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزلوا عليه حتى قبضوا.. مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد في الفتيا في أشياء كثيرة، ولولا أني قد عرفت أن قد علمتها لكتبت بها إليك. ثم اختلف التابعون بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف ثم اختلف الذين كانوا من بعدهم فحضرتهم بالمدينة ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن.

وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك فيه وقول ذوي الرأي من أهل المدينة: يحيى بن سعيد وعبيد الله.. وكثير بن فرقد وغير ككثير ممن هو أسن منه حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه، وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك فكنتما من الموافقين فيما أنكرت تكرهان من ذلك ما أكرهه ومع ذلك فعند ربيعة خير كثير... رحمه الله.

وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه، وإذا كاتب بعضنا فربما كتب إليه في الشئ الواحد على فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا، ولا يشير بالذي مضى من رأيه في ذلك، فهذا الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرت تركي إياه".

وأخذ الليث يجادل مالكا في خلافات في فقه مالك ذاته ثم عاد يذكر له: "وقد بلغنا عنكم شئ من الفتيا مستكر، وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي، فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك فتركت الكتابة إليك، في شئ مما أنكرت وفيما أو وردت فيه على رأيك....".